كراسات

(19)

أزمة الوعى العربى

بين الحملة الفرنسية والحملة الأمريكية

إعداد

محمد إسماعيل زاهر



مركز البحوث العربية والأفريقية

أزمة الوعى العربى بين الحملة الفرنسية والحملة الأمريكية

إعداد: محمد إسماعيل زاهر



مركز البحوث العربية والأفريقية

اسم الكتاب: أزمة الوعى العربى بين الحملة الفرنسية والحملة الأمريكية

اسم المؤلف: محمد إسماعيل زاهر

تصحيح لغوى: علاء فاروق

التوضيب الداخلى: ناهد عفيفى

الناشر: دار الأمين

رقم الإيداع: ١٨٢٤٧ / ٢٠٠٤ الترقيم الدولي: I.S.B.N. 977-279-420-9

مركز البحوث العربية والأفريقية : ٨/١٠ متحف المنيل – المنيل – القاهرة ت/ف : ٣٦٢٠٥١١

البريد الإلكتروني: arc@ie-eg.com Website: www.aarcegypt.org

المحتويات

التصدير

لعل هذه الدراسة توضح إلى حد كبير مدى الأزمة التي يعاني منها المثقف العربي في رؤيته لحوادث التاريخ الكبرى ، تلك التي ينتج عنها تحولات اجتماعية وسياسية هائلة تنقل المجتمع من حالة إلى أخرى ، أو تضعه في مواجهات وأمام تحديات لا قبل له بها. واختلاف الرؤى بين الناس أمر مفهوم حسب التكوين الثقافي لكل منهم ومن هنا تتعدد وجهات النظر حول أمر واحد. لكن غير المفهوم وغير المقبول أن تختلف نظرة المثقف الواحد حول حدثين من نوع واحد ، ففي هذه الحالة تثار مسألة المعيارية وما يتصل بها من الانتقائية والاختيار في مسائل واضحة لا تحتمل اللبس. كما تثار مسألة الوعي بالتاريخ وحقيقة دروس التاريخ التي ينبغي أن يفيد منها الجميع : الحكام والسياسيون قبل عامة الدارسين وجمهرة المثقفين.

وقد اختار كاتبنا حدثين رئيسيين ليدير حولهما معنى أزمة الوعي بالزمن لدى المثقف العربي بشكل عام والمثقف المصري بشكل خاص. أولهما الحملة الفرنسية على مصر وبلاد الشام (يوليه ١٧٩٨) ، وثانيهما الحملة الأمريكية على العراق (مارس ٢٠٠٣) .. كيف رأى المعاصرون للحملة الفرنسية هذه الحملة بين الصدمة والانبهار ، وبين الرفض والاستهجان على أساس اختلاف التقاليد والثقافة. ثم كيف رأى المعاصرون للحملة الأمريكية الأخيرة هذه الحرب بين التأييد الصريح وبين الرفض الخفي والملتوي وفق حسابات معينة. وكيف استدعى معاصرو الحملة الأمريكية بين مؤيد ومعارض ملابسات الحملة الفرنسية لتأييد وجهات النظر المتعارضة حتى دخلت المسألة في باب التأويل والتبرير أكثر من الشرح والتفسير.

وتكشف النصوص التي حرص كاتبنا على إثباتها حقيقة أزمة المثقف والمفكر في مواجهة الحوادث الكبرى التي يصنعها أصحاب السلطة والسلطان مما يثير في كل زمان ومكان مأزق المثقف تجاه السلطة وأفعالها. كما تكشف أيضا مصادر التقويم التي يستند إليها صاحب الرأي والتي تصنع وجهة نظره عند المعالجة. وعلى هذا فنحن أمام تركيبة عجيبة من المثقفين لكل منهم ثقافته التي كونته دون اختيار عمدي. وبمرور الأيام عرف كل منهم بصفة معينة ما بين إسلامي تقليدي ، وإسلامي مستنير ، وعلماني ، ومادي جدلي ، ومستشرق أكثر استشراقا من المستشرقين أنفسهم.

ويلاحـظ فـي هذا السياق أن بعض المفكرين يحددون وجهة نظرهم في الموضوع حسب المناخ السياسي القائم وما يقتضيه من مواقف بعيدا عن المنهج العلمي في التفكير ، ويدخل في التحديد أيضا وضع الكاتب اجتماعيا وتطلعاته السياسية. وهنا يعمد المفكر في تحديد رأيه إلى الرجوع إلى حوادث الماضـي للبحـث عما يؤكد وجهة نظره ويدعمها ، وهذه تتصل بالقدرة على توظيفه المعارف التي تلقاهـا كـل منهم. وأذكر في هذا الخصوص أن كاتبا كتب عن رفاعة الطهطاوي في ستينات القرن العشـرين فجعل منه كاتبا اشتراكيا دعا إلى العدالة الاجتماعية والمساواة ، ثم كتب نفس الكاتب عن الطهطـاوي مـرة أخرى في عصر الانفتاح الاقتصادي فجعل منه مبشرا بالرأسمالية والاقتصاد الحر !!.

وعـندما يختلف المفكرون في الرؤى وفي التقويم لا يجدون في الدفاع عما يعتقدون -كما لاحظ المؤلـف- إلا تبادل تهم الخيانة ، والعمالة ، والازدواجية ، والشيوفونية ، والجمود ، والتخلف ، أي أن كـلا منهم يمسك بتلابيب الآخر ليس دفاعا عن الفكرة وإنما دفاعا عن المصالح التي يستهدفها من هذه الرؤية أو تلك.

لقـد أحسن المؤلف اختيار الموضوع ، وتمكن من معالجة أبعاد الأزمة ، وكشف لنا مدى المأزق الـذي يعانـي مـنه المثقف عندما يتعين عليه أن يقول رأيا في مسألة ما ، وجاءت لغته سهلة يسيرة تغـري بالقـراءة والمتابعة. ولقد فتح لنا بابا واسعا لمعالجة ذات القضية ولكن من زوايا أخرى لعله يتمكن من الكشف عنها في أعمال قادمة.

د. عاصم الدسوقي

العجوزة في سبتمبر ٢٠٠٤

مقدمـة:

يسعى هذا البحث إلى دراسة أبرز مظاهر الوعى العربى بالآخر الحضارى- الغربى- خاصة فى لحظات الأزمات الحضارية والتى تتمثل فى الضغط الخارجى على العالم العربى بما يؤثر بالسلب على معادلة الحداثة بطرفيها، الموروث الحضارى الذاتى، والوافد الثقافى الغربى.

واختار الباحث نموذجا للوعى الحملة الفرنسية على مصر فى عام ١٧٩٨ والحملة الأمريكية على المنطقة العربية والتى انتهت باحتلال العراق فى عام ٢٠٠٣.

وتمثل الحملة الفرنسية بداية الوعى بالغرب وحضارة العصر بعد قرون عديدة من العزلة شهدتها مصر والعالمين العربى والإسلامى، وهى اللحظة الزمنية التى يتخذها العديد من الباحثين بداية للنهضة العربية الحديثة، وكمفجر لسؤال الحداثة والذى اتخذ العديد من الصيغ لعل أشهرها وأبسطها: ماذا نأخذ من الغرب وماذا نترك؟ وما هو السبيل الأمثل للنهوض الحضارى؟

ولا يهدف الباحث إلى التأريخ للحملة الفرنسية بقدر ما يبحث انعكاس هذه الحملة بأبعادها المختلفة على الوعى العربى خاصة بعد هزيمة ١٩٦٧، وهى لحظة تأزم حضارى أخرى انتهى عندها المشروع القومى نتيجة للضغط الغربى، وفتحت الباب واسعا لمراجعة العديد من الثوابت الفكرية والحضارية، خاصة أن الوعى العربى منذ هزيمة ١٩٦٧ محمل بالعديد من الهزائم السياسية والحضارية، بدأت باتفاقية كامب ديفيد عام ١٩٧٩ فى تراجع سياسى واضح عن التزام مصر القومى وانتصار أكتوبر العسكرى وانتهاء بسقوط بغداد فى أبريل ٢٠٠٣، ومرورا بالغزو الصهيونى للبنان فى عام ١٩٨٢، وتأزم القضية الفلسطينية وحرب الخليج الثانية فى عام ١٩٩١. وبالنسبة للحملة الأمريكية، لا يسعى هذا البحث أيضا إلى التأريخ لجذورها وأهدافها بقدر ما يهدف إلى إبراز أن الوعى بهذه الحملة جاء محملا بآثار هزيمة ١٩٦٧ وتوابعها عبر رؤية تشاؤمية للتاريخ ترى الوضع العربى يسير من سيئ إلى أسوأ. وما يجمع بين الحملتين فى هذا البحث ليس الرغبة فى المقارنة بينهما بقدر النظر إلى الوعى العربى وإدراكه للآخر الغربى ما بين لحظة البداية- ١٧٩٨- واللحظة المعايشة حاليا، ومدى إدراك الغرب بتجلياته المختلفة: الحضارية والعسكرية والسياسية بما يؤثر على سؤال الحداثة وأهميته الراهنة بالنسبة لواقع الثقافة العربية.

المـؤلـف

القسم الأول:

الحملة الفرنسية: الوعى بالتاريخ من خلال الآخر:

تمهيـد:

تربط الكثير من الأعمال الفكرية والتاريخية ما بين الحملة الفرنسية على مصر فى عـام ١٧٩٨ وبداية تاريخ مصر الحديث والمعاصر، وتتكرر فى هذا السياق نظرية مؤداها أن الحملـة الفرنسـية أخرجت مصر من قرون الركود العثمانى والمملوكى إلى آفاق التحديث حتى أصبحت هذه النظريـة من المسلمات التاريخية والفكرية لدى العديد من المثقفين [١]

وشهدت العقود الأخيرة من القرن العشرين تبنى البعض لنظرية مضادة تعتبر الحملة الفرنسـية إجهاضا لمحاولات تحديث ذاتية شهدتها مصر فى نهايات القرن الثامن عشر، وانتشرت هذه النظرية بعد أطروحة المفكر الأمريكى الماركسى بيتر جران حول هذا الموضوع والتى ظهرت فـى كتـاب باللغة الإنجليزية للمرة الأولى فى عام ١٩٧٩ تحت عنوان "الجذور الإسـلامية للرأسـمالية، مصـر ١٧٦٠-١٨٤٠" [٢].

وفى أثناء عزم وزارة الثقافة الاحتفال بمرور مائتى عام على العلاقات المصرية الفرنسية فـى عام ١٩٩٨ رأى البعض أن هذا الاحتفال لا يعدو أن يكون احتفالا بحملة عسكرية غازية، بينما ربط آخرون بين الاحتفال بالحملة والعدوان الأمريكى المتكرر على الأمة العربية ممثلـة فـى العـراق، ورحب فريق ثالث بالاحتفال الثقافى مع التأكيد على رفض الغزو العسكرى بكافة أشكاله وصـوره، بينما ذهب فريق رابع إلى قبول الحملة بشقيها العسكرى والحضارى، ورأى فريق خامس أن الحملـة الفرنسية هى آخر أساطير التاريخ الفرنسى وراح يعمل جاهدا على إقصاء الحملة الفرنسية بوصـفها حدثًا من داخل التاريخ الفرنسى ذاته.

ولا يعبر هذا الخلاف حول الحملة الفرنسية عن مجرد احتفال أرادت أن تقيمه وزارة الثقافـة، ولا يقتصر فقط على مجرد تباين فى الرؤى التاريخية بين الأكاديميين والمثقفين كما يرى البعض [٣]

وفى محاولات العديد من المثقفين والباحثين للإجابة على سؤال الاختلاف حول الحملة الفرنسـية وعلاقتها بتاريخ مصر الحديث والمعاصر تعددت الاجتهادات والرؤى، فذهب طارق البشرى إلى أن

الاختلاف حول بدايات تاريخ مصر الحديث يخضع سوجهات المثقف الفكرية والأيديولوجيــة ســواء أكانت إسلامية أو علمانية أو ليبرالية [٤].

ويرى السيد يسن أن هذا الخلاف نتج عن صراع محتدم بين القوى التقليدية والقــوى التحديثيــة على مستوى العالم العربى [٥]، وهو يقصد بالطبع الصراع بين التيارين الإسلامى والعلمــانى حــول حدود الغربى بوصفه نموذجاً معرفياً وحضارياً.

والمتابع للكتابات المختلفة حول الحملة الفرنسية يلاحظ أن الصراع الفكرى حولها لــم يقتصــر على الانشطار الإسلامى/ العلمانى، بل خضعت الحملة -كمــا ســيأتى لاحقــا- لــرؤى ماركســية واستشراقية، بالإضافة إلى الرؤى الإسلامية والعلمانية العامة.

وامتدت هذه الرؤى الخلافية المتعددة زمنيا لتشمل الفترة السابقة على الحملة واللاحقة لها، فنجد الصراع على الفترة السابقة على الحملة من خلال تحليل ظروف المجتمع المصرى ومدى استطاعته من خلال عوامل ذاتية أن يتقدم، أو البحث وراء الجذور التاريخية التى دفعت فرنسا للتفكير فى غزو مصر.. إلخ.

وتم تجاوز الحملة إلى محمد على وهل كان يهدف إلى النهــوض بمصــر أم يســعى لتكــوين إمبراطورية عربية؟ أو يرغب فى الحلول محل السلطان العثمانى؟ وتتم المقارنة كثيرا بين النهضــة فى عهده والنهضة اليابانية فى نفس المرحلة [٦]. ويعتبره البعض بغض النظر عن دوافعــه مؤسســا لمصر الحديثة [٧]، بينما يرى فيه آخرون "تلميذا للفرنسيس منفذا لسياسة الفرنجة" [٨] ومع أخــذ كــل هذه الرؤى وطبيعة الخلاف بينها ووضع مقاصدها فى الاعتبار فإن الباحث لا يهــتم هنــا بالتــأريخ للحملة الفرنسية بقدر ما يهدف إلى قراءة بعض الأعمال التى رصدت الحملة من زوايا متعددة وذلك انطلاقا من فرضية مبدئية يضعها الباحث نصب عينيه وهو يقرأ هــذه الأعمــال. وتــتلخص هــذه الفرضية فى أن الحملة الفرنسية بوصفها حدثاً تاريخياً وحضارياً لا يعبر عن موقفنا الحضارى مــن الغرب وكيفية التعامل مع الآخر. ولا يمكن تبسيط هذا الحدث ووضعه فى سياق تــاريخى يقتصــر على النزاع حول بداية تاريخ مصر الحديث والمعاصر، وإنما يفترض الباحث أن الأعمال المتابعــة للحملة الفرنسية والتى سيرد ذكرها خلال المتن لاحقا قد أشارت إلى العديد من الإشكاليات الفكريــة المعقدة التى أدت إلى تحول هذه الفترة المبحوثة إلى "أرابيسك" تاريخى وفكرى، مما أفرز فى النهاية حالة من التأزم العقلى العنيف تجاه الآخر "الغرب"، وحالة مماثلة من التأزم العقلــى بــين المثقفــين بعضهم البعض "منتجو هذه النصوص".

ويــبدو للمـــتابع للواقـــع الثقافى العربى بعد سزيمة ١٩٦٧ أن الساحة الثقافية العربية قد شهدت تغيرات بنيوية جوهرية تركزت فى العديد من الظواهر الفكرية التى قام العديد من الباحثين برصدها، ويمكن تلخيصها فى الظواهر التالية:

١-الاهــتمام بــتاريخ مصر الحديث والمعاصر، فيرصد لويس عوض بداية الاتجاه إلى التاريخ القومى الحديث بكثافة بعد عام ١٩٦٧ على النحو التالى "فقد لاحظت أن عديدين من علمائنا وباحثينا قــد اتجهوا منذ ١٩٦٧ إلى نبش تاريخ مصر السابق على ثورة ٢٣ يوليو بعد أن كان هناك ما يشبه الانصــراف عن دراسة أى شئ حدث قبل ١٩٥٢، بل بعد أن كان ما يشبه الإدانة الضمنية والعلنية أحــيانا لأى شئ حدث قبل ١٩٥٢" [٩] وقد بدأ نفس الباحث فى كتابة تاريخ الفكر المصرى الحديث بعد هزيمة ٥ يونيو ١٩٦٧ ليعرف (ماذا جرى؟ ولماذا جرى؟ وكيف النجاة؟) [١٠] .

٢-العــودة إلى الماضى: وهى ظاهرة لم تقتصر على التيار الإسلامى- وهى نظرية تعتبر من المسلمات لدى العديد من الباحثين- فالتيار الإسلامى لم ينتج مشاريع فكرية شبه متكاملة أو مترابطة عــن التراث كما فعل حسين مروة فى "النزعات المادية فى الفلسفة العربية الإسلامية" أو أدونيس فى "الثابــت والمــتحول". ثــم فى فترات لاحقة وإرهاصًا لهزيمة يونيو ١٩٦٧ ظهرت أعمال الجابرى وحســن حنفى.. إلخ، والقائمة تطول على مستوى العالم العربى، وهى أعمال تفوق من حيث الكم أو الكــيف أعمال الإسلاميين المستقلين أو المثقفين أمثال البشرى والعوا ومحمد عمارة وأحمد كمال أبو المجــد وفهمى هويدى.... إلخ، مما يدل على أن ظاهرة النكوص من الحاضر إلى الماضى- بغض النظر عن الأسباب- قد أغرقت النخبة المثقفة فى عالمنا العربى.

٣-الميل إلى التدين: سواء من جانب الأنظمة الحاكمة حيث عمت هذه الظاهرة الأنظمة العربية بعــد الهــزيمة (بــل إننا يمكن ألا نستثنى نظاما عربيا واحداً لم يعتمد على المقولات الدينية) [١١] أو طــرح تفســيرات دينية محتواها أن الهزيمة فى الأصل كانت لابتعاد المجتمع والنظام السياسى عن الديــن، وأن حــل المشــاكل الاجتماعية والسياسية يمكن فى العودة إلى الدين [١٢] ، واستخدام بعض الحــوادث التى تبدو خارقة وترويجها إعلاميا مثل حادثة ظهور العذراء بكنيسة الزيتون عام ١٩٦٨ لامتصــاص الغضــب الشعبى [١٣] وهى الظروف التى مهدت الطريق بعد ذلك إلى مصر السبعينات وتحالف النظام مع جماعات الإسلام السياسى، بالإضافة إلى أسباب أخرى لا مجال هنا لذكرها.

٤-ظاهــرة جلد الذات: امتلأت الحقبة التالية لهزيمة ١٩٦٧ بأعمال تقوم فى الأساس على النقد الذاتى، ويرى محمد عابد الجابرى أن الإنتاج الثقافى العربى فى الفترة التالية لهزيمة ١٩٦٧ قد يبدو بأكمله جلدا عنيفا للذات العربية الجريحة [١٤] .

ومع تحالف النظام السياسى فى مصر مع جماعات الإسلام السياسى فى السبعينات وانتشار أحداث العنف ومحاولة أسلمة المجتمع بالقوة فى الثمانينات والتسعينات بدا للمتابع أن مصر تعيش حالة من الانشطار الإسلامى- العلمانى وأن التراثيين الجدد لا يبحثون فى التراث عن حلول لمشاكلنا الحضارية والفكرية بقدر ما يقومون بوضع مصدات دفاع تراثية أمام الإسلاميين، فعندما كتب على عبد الرازق (الإسلام وأصول الحكم) فى عام ١٩٢٥ كان ذلك نتيجة لإلغاء الخلافة فى تركيا فى عام ١٩٢٤، وردا على محاولات الكثير تنصيب الملك فؤاد خليفة للمسلمين [١٥] ، بينما تبدو أعمال سعيد العشماوى (كالإسلام السياسى والخلافة الإسلامية.. إلخ) ردا على جماعات الإسلام السياسى. ويمكننا من نفس المنطلق أن نخضع (تحرير المرأة) لقاسم أمين وكل الأعمال الفكرية التى شهدتها مصر فى الفترة الأخيرة حول الحجاب لهذا المنطق، وهو منطق يتسم بالتأزم العقلى- السياسى- الثقافى؛ لأن هناك فارقاً كبيراً بين وقوف المثقف أمام السلطة (حالة على عبد الرازق)، ووقوفه لوجود قضية جوهرية وحيوية موجودة- قاسم أمين- ودخول تيارات ثقافية وسياسية فى تقاتل حضارى وكل منها ينفى الآخر على ساحة التراث. ولم يقتصر الأمر على الخلافة أو الحجاب بل تطور الصراع إلى مسألة الهوية* وأثيرت مرات عديدة مسألة عروبة مصر*، وبدا للمتابع أن مصر تعيش حالة من الانشطار الثقافى ما بين تيارات ثقافية وفكرية متعددة لم تكن الحقبة الناصرية إلا فترة انقطاع مؤقت لها [١٦] ، ولم يكن هذا الانقطاع نتيجة لإيمان هذه التيارات بأفكار المرحلة الناصرية أو نتيجة لتطورات ذاتية وفكرية شهدتها هذه التيارات بقدر ما كان نتيجة لممارسات سلطوية قامت بها السلطة الناصرية تجاه هذه التيارات- مثل اعتقال الإخوان المسلمين والشيوعيين، ثم احتواء السلطة للاتجاهات اليسارية المصرية بدءا من عام ١٩٦٤ [١٧] ومع عدم قدرة السلطة الناصرية على الحسم الفكرى التام تجاه أى من هذه التيارات لم تستطع أيضا أن تقوم بحسم اجتماعى أو اقتصادى تام تجاه أفكارها الاشتراكية.*

ولذا عندما انهار المشروع القومى مع هزيمة ١٩٦٧ عادت كل هذه التيارات للصراع الفكرى والسياسى، وإن كان من ظروف مغايرة لما قبل ١٩٥٢، ومما زاد الصراع ضراوة وجود إسرائيل بوصفها كياناً معقداً وغريباً بالنسبة للمثقف المصرى، وهو ما يرصده أحمد بهاء الدين، فإسرائيل بكيانها الاستعمارى الغريب (والذى يحمل ظلالاً شتى تبدأ من الأسطورة الدينية إلى استخدام أعقد وسائل العلم الحديث أدت إلى ردود فعل متضاربة فى العقل العربى العام، فالذين رأوا فى إسرائيل جانبها القائم على الأسطورة الدينية وجدوا أن الدفاع ضدها يكون فى الرجوع إلى الماضى، واعتبروا أن تسلل الأفكار الجديدة إلى المجتمع كان سبب الهزائم، والذين رأوا فى إسرائيل نظامها القائم على

الحريات الليبرالية وتعدد الأحزاب قالوا إن الحل فى الأخذ بالليبرالية الأوروبية، والذين رأوا الأساس فى الظاهرة الإسرائيلية هو ارتباطها العضوى بالاستعمار العالمى قرروا أن الحل هو الثورة الاجتماعية الشاملة بل والثورة العالمية) (١٨) وهو ما فتح الساحة للصراع الفكرى بين التيارات المختلفة. وامتد هذا الصراع إلى موضوع تاريخ مصر الحديث والمعاصر، وهل كان مجيئ الحملة إلى مصر سببا للنهوض أم انتكاسة لجذور نهضة كانت قائمة بالفعل؟

وانطلاقا من ظاهرة الاهتمام بتاريخ مصر الحديث والمعاصر والعودة إلى المراحل التأسيسية فيه لمعرفة لماذا انتكسنا أمام إسرائيل قام لويس عوض بنشر الجزء الأول من تاريخ الفكر المصرى الحديث فى عام ١٩٦٩، ثم رد عليه من وجهة نظر مغايرة محمد جلال كشك فى كتابه و(دخلت الخيل الأزهر) فى عام ١٩٧١، ثم توالت الأعمال الخاصة بالحملة الفرنسية بعد ذلك تحمل وجهات النظر الثلاثة المعروفة، إما مؤيدة أو معارضة أو توفيقية.

ويقوم الجزء التالى من هذا البحث بعرض وجهات النظر المختلفة تجاه الحملة الفرنسية من خلال المحاور التالية:

١-المحور الأول: الحملة الفرنسية من خلال التأريخ للنهضة العربية الحديثة

تبدأ الأعمال الفكرية العديدة التى تؤرخ للنظام الثقافى العربى الحديث عادة بالحملة الفرنسية. وهذه الأعمال لا تؤرخ لبداية العصر الحديث فى مصر والعالم العربى بقدر ما تبحث فى التاريخ النهضوى وبداية تعرف العرب على الأفكار الغربية الحديثة.

حيث يبدأ حليم بركات المرحلة التأسيسية للنهضة العربية الحديثة على النحو التالى (يعيد الباحثون بدء النهضة عادة إلى سنة ١٧٩٨ عندما غزا نابليون مصر؛ باعتبار أن هذا التاريخ يمثل المجابهة المباشرة بين الغرب والشرق، أو بالأحرى بين الخلافة العثمانية وأوروبا الصناعية فى المشرق العربى، وبين مصر وإنكلترا، وبين المغرب العربى وفرنسا، وفى إطار هذه المواجهات عرف عصر النهضة الاحتكاك بالغرب وانتشار التعليم ونشوء الجمعيات الثقافية والحركات السياسية وبدأت تتوالى الأسئلة من مواقع مختلفة: ما هى أسباب ضعف الشرق حتى يتمكن الغرب من اجتياحه والتغلب عليه؟ وما الداء وما الدواء؟ وكيف يكون التعامل مع الغرب وما طبيعته؟ هل نقبل على الثقافة الغربية أم نرفضها كليا أو جزئيا؟ كيف ننهض من كبوتنا ونصلح من حياتنا) (١٩)

ويطلق محمد كامل ضاهر على ما أحدثته الحملة الفرنسية فى الوعى العربى تعبير "صدمة الحداثة" (٢٠) وهذه الصدمة أفاقت الإنسان العربى من سباته الطويل (منذ قرنين من الزمان تقريبا بدأ

الإنسان العربى يستيقظ من سبات عميق إثر اصطدامه بحضارة عالم جديدة لا تمت إلى مفاهيمه عن الكون والحياة بشئ) [٢١] .

وبعد أن يقارن أدونيس بين النهايات المختلفة للفترة السابقة على ما سمى بالنهضة العربية الحديثة والتى أطلق عليها (الفترة المظلمة) [٢٢] والتى يحصرها فى الفترة من سقوط بغداد على يد هولاكو سنة ١٢٥٨ حتى سنة ١٧٩٨ أو فى أواخر القرن التاسع عشر أو فى إعادة الدستور العثمانى فى عام ١٩٠٨ أو بانتهاء الحرب العالمية الأولى ١٩١٨[٢٣] ثم يختار أدونيس عام ١٧٩٨ لنهاية الفترة المظلمة وبداية عصر النهضة حيث (لم يؤثر الحضور الفرنسى فى طراز التفكير وحسب وإنما أثر كذلك فى طراز الحياة) [٢٤] .

ويبرز ماهر الشريف دور الحملة الفرنسية فى إدراك العرب لمدى تخلفهم فقد (ظهرت إشكالية النهضة العربية فى مطلع القرن التاسع عشر بعد أن بدأ العرب والمسلمون يتملكون الوعى بتخلفهم، ويدركون حاجتهم إلى النهوض بعد عصور طويلة من الانحطاط. ولقد لعب الاحتكاك المباشر بالغرب دورا رئيسيا فى ظهور هذه الإشكالية) [٢٥] ويعرف نفس الباحث خطاب عصر النهضة (بأنه النص الذى أنتجه المثقف العربى الحديث الذى راح يظهر منذ الربع الثانى من القرن التاسع عشر إثر صدمة الاحتكاك بالغرب وإدراك طبيعة الفرق بين التأخر والتقدم) [٢٦] وعلى الرغم من عودة ألبرت حورانى إلى بدايات القرن الثامن عشر كأول محاولة تجرى فى الدولة العثمانية للإصلاح على أساس عسكرى غربى [٢٧] ثم يعدد الباحث محاولات الإصلاح العثمانية طوال القرن الثامن عشر إلا أن تأريخه للفكر العربى يبدأ من عام ١٧٩٨[٢٨].

ويؤكد محمد عابد الجابرى على الأبعاد المختلفة للحملة الفرنسية على مصر من خلال رؤية كلية لأوضاع مصر والحداثة الأوروبية آنذاك (لقد نقلت حملة نابليون معها إلى مصر الدعائم الثلاثة التى قامت عليها الحداثة الأوروبية: القوة والمنافسة والمعرفة. وإذا شئنا التعبير عن هذه العناصر بما يعكس علاقتها مع المشروع النهضوى العربى قلنا إنها: التوسع الاستعمارى، والتنافس الأوروبى الإنجليزى- الفرنسى، والفكر التحديثى) [٢٩] .

تقوم هذه الأعمال إذن على التأريخ للنهضة العربية الحديثة وتبدأ هذه الأعمال بالحملة الفرنسية كبداية لهذه النهضة ولا تتطرق إلى أحداث الحملة الفرنسية أو ظروف المجتمع المصرى قبل وأثناء الحملة، بل هى تضع عام دخول نابليون إلى مصر "١٧٩٨" كعلامة فارقة على بدء النهضة الحديثة وكتاريخ حاسم وفاصل بين عالمين، الأول يمثل فترات الظلام والآخر يعبر عن التحديث والنهوض، وذلك من خلال عملية جدلية تشمل التحديثات التى أدخلها الفرنسيون إلى مصر، ووعى المصريين

بمدى تخلفهم إزاء الحضارة الوافدة. وعلى الرغم من تطرق بعض هذه الأعمال إلى محاولات الإصلاح التى تمت داخل القرن الثامن عشر ورصدها للعلاقة مع الغرب قبل الحملة من خلال المدارس أو الإرساليات أو المطابع.. إلخ [٣٠] فإنها تصر على الصدمة العسكرية والحضارية التى أحدثتها حملة نابليون كبداية للنهضة الحديثة.

والملاحظة الأساسية على هذه الأعمال وغيرها أنها لم تكتف بحملة نابليون كعام لميلاد النهضة العربية الحديثة، ولكنها حددت نهايات هذه النهضة بأعوام تبدو فى أغلبها مرتبطة بأحداث غربية ذات تأثيرات مهمة فى العالم العربى، فعصر النهضة ينتهى عند حليم بركات فى عام ١٩١٤ [٣١] وعند ألبرت حورانى فى عام ١٩٣٩ [٣٢] أما محمد جابر الانصارى فيختار عام ١٩٣٠ لنهاية عصر النهضة العربى [٣٣] ويحدد علي المحافظة عام ١٩١٤ لنفس النهاية [٣٤].

ويرتبط عام ١٩١٤ ببداية الحرب العالمية الأولى، وعام ١٩٣٩ ببداية الحرب العالمية الثانية، وعام ١٩٣٠ بالضائقة الاقتصادية التى شهدها الغرب فى الثلاثينات. وعلى الرغم من انعكاس هذه الأحداث على العالم العربى بتأثيرات مختلفة ومهمة فى المجالات الثقافية والسياسية المتعددة فإنها تبقى أحداثا ذات دلالتين:

الأولى: أنها أحداث صنعها الآخر الحضارى فى الأساس، ووضعها بوصفها علامات فارقة فى التاريخ الفكرى العربى الحديث يمثل تبعية ثقافية شبه مطلقة للغرب.

الثانية: أن هذه التواريخ تمثل هزائم حضارية وسياسية وعسكرية أمام الآخر، والتأكيد عليها وتكرارها ووضعها كمحطات أساسية وفارقة فى النظام الثقافى العربى- إن جاز هذا التعبير- يضخم من ظاهرة جلد الذات.

ومن داخل هذه الأعمال- ما أورده الباحث عينة ممثلة ولكنه يعتقد أنها تنطبق على الغالبية العظمى من الأعمال المؤرخة للنظام الثقافى العربى- يتم القفز سريعا على أحداث قد تبدو مرتبطة أكثر بنضال المجتمع المصرى والعربى فيتم التأكيد على عام ١٩١٤ وتجاهل، أو شبه تجاهل عام ١٩١٩، فى التاريخ النهضوى وليس السياسى، وفى الإطار المتقدم زمنيا يتم الإغراق فى هزيمة ١٩٦٧ وتجاهك حرب أكتوبر ١٩٧٣، وحتى وإن كانت الانتصارات التى حققتها الذات محدودة ولم يتم تحقيق الاستفادة الكاملة منها فإن الإجماع على الهزائم الحضارية والسياسية بصورة متكررة يخلق دائرة شبه مغلقة لا فكاك للذات العربية منها.

****

٢-المحور الثانى: الحملة الفرنسية من منظور ـوعى التاريخى

يقوم هذا المحور على عرض وجهتى النظر الخاصتين بالموقف من الحملة الفرنسية من خلال استعراض الخلاف على أحداث وشخصيات مهمة من داخل هذا الحدث التاريخى، وتعتبر وجهة النظر الأولى الحملة الفرنسية بداية تاريخ مصر الحديث، بينما ترى الأخرى أن الحملة أجهضت محاولات تحديث ذاتية شهدتها مصر فى أواخر القرن الثامن عشر. وهناك وجهة نظر ثالثة حاولت أن تتوسط الرؤيتين السابقتين فتقبل الشق الحضارى من الحملة وترفض وجهها العسكرى.

أولا: الحملة الفرنسية كبداية لتاريخ مصر الحديث:

يعتبر الجزء الأول من كتاب تاريخ الفكر المصرى الحديث (٣٥) من أوائل الأعمال الفكرية بعد الهزيمة فى يونيو ١٩٦٧ والتى رجعت لتنقب وتبحث فى التاريخ الحديث، إذ صدر هذا الجزء كتابًا فى عام ١٩٦٩.

وتتشكل رؤية الكاتب للحملة الفرنسية من خلال رؤيته لأوضاع مصر قبل الحملة الفرنسية، ولما استحدثه الفرنسيون فى مصر، وموقفه من عدة شخصيات مثل بونابرت وسليمان الحلبى.

فى البداية يركز لويس عوض على ثورة همام أمير الصعيد والتى بدأت فى عام ١٧٣٦ (٣٦) ، وتتبع أهمية هذه الثورة من أهدافها الوطنية والاجتماعية، إذ كانت تهدف إلى استقلال مصر واستخلاصها من أيدى المماليك. وأما الهدف الاجتماعى فيتلخص فى تمليك الأرض للمصريين وتوزيعها على الفلاحين (٣٧) وعلى مدى العديد من الصفحات يسعى الكاتب جاهدا إلى إثبات أن ثورة همام كانت تجربة فريدة للنظام الجمهورى الحديث (٣٨) .

ويعتبر نفس الكاتب فى مكان آخر أن حجة عام ١٧٩٥ والتى كتبها الوالى والمماليك لبيان الحقوق والواجبات بين الحاكم والرعية خطوة نحو تبلور فكرة الدستور (٣٩) .

إذن يتم الانطلاق هنا من بعد وطنى يسعى إلى التأكيد على الثورات والهبات الشعبية السابقة على الحملة الفرنسية مع التركيز على البعد الاقتصادى الاجتماعى.

ويرى لويس عوض أن الحملة الفرنسية (كانت الحد الفاصل بين عالمين مختلفين كل الاختلاف: عالم وسيط يمتد بطول العصر التركى المملوكى منتهيا فى عام ١٧٩٨ فيه عدد من الثورات الاقتصادية البحتة التى لم تخرج عن أو يخرج عنها أى فكر سياسى أو اجتماعى أو ثقافى معروف. وعالم لم تحدث فيه أية حركة إلا وكانت مقترنة بمذهب سياسى واضح أو بأيديولوجيا اجتماعية واضحة أو بتيار ثقافى واضح أياً كان اتجاهه) (٤٠) .

ومن هذا المنطلق تصبح حملة بونابرت على مصر هى المفجر الأساسى لبناء هيكل الدولة على الطراز الحديث، والسبب المباشر فى التطورات الاقتصادية والمادية التى استجدت على مصر نتيجة لتصفية الإقطاع التركى المملوكى أثناء الحملة، والتطورات الاجتماعية التى استجدت فى مصر من خلال الأدب والصحافة ونشأة التيارات الفكرية والأدبية فيما بعد [٤١] .

أما البيان الذى أرسله نابليون ليوزع فى الإسكندرية قبل وأثناء دخوله إليها فقد أدى إلى (تغذية الروح القومية المصرية وإقناع المصرى بالثورة على المماليك ثم الانفصال عن الباب العالى) [٤٢] .

وبعد دخول نابليون إلى القاهرة يقوم بتشكيل أول وزارة مصرية [٤٣] تم إنشاء أول برلمان مصرى عرف يومئذ بالديوان العام [٤٤] وقد أدى هذا التجديد فى نظام الحكم كما يرى لويس عوض إلى ثلاث نتائج رئيسية.

١-أن الشعب المصرى من خلال الاعتراف الشكلى أو القانونى أو الدستورى بحقوقه المغتصبة خلال فترات الحكم التركى- المملوكى قد أدرك أنه صاحب الحق الأول فى حكم بلاده [٤٥] .

٢-أن الحكومة المصرية التى أقامها الفرنسيون كانت بمثابة تدريب أولى للمصريين على تقلد السلطة ومسئولياتها.

٣-أن الحكم المصرى استطاع أن يستخلص للمصريين الكثير من مصالحهم الضائعة، وأن يحل لهم الكثير من مشكلاتهم المعلقة فى الدوائر التى كانت لا تتعارض أو لا تتداخل مع مصالح الفرنسيين [٤٦] .

وبالنسبة لنابليون يرى لويس عوض أنه الرجل الذى (جاء ومن ورائه رصيد ضخم من مبادئ الثورة الفرنسية فكان فى استطاعته أن ينادى بلا تحفظ بتصفية الإقطاع أو الالتزام الملوكى وإلغاء الامتيازات الطبقية بل وإلغاء الفوارق بين الطبقات) [٤٧] ويتم وصفه بـ (رجل الأقدار الذى يقع على يديه ذلك التغيير العظيم) [٤٨] .

ويتوقف لويس عوض طويلا أمام القوانين التى طبقها الفرنسيون فى مصر والمحاكمة التى أجروها لسليمان الحلبى باعتباره حدثا لم تشهده مصر طوال العصر التركى- المملوكى- المحاكمات القانونية- ويتم وصف سليمان الحلبى (بقاتل كليبر) [٤٩] .

أما بالنسبة للجبرتى بوصفه مؤرخاً عاصر الحملة الفرنسية ومصدرًا اعتمد عليه لويس عوض فهو يراه متفتحا فى المواقف التى أعجب فيها بالحضارة الفرنسية [٥٠] وينقده فى أحيان أخرى مثل موقفه من سلوك بعض النساء مع جنود الحملة الفرنسية، ويرثى له فى المواقف التى يعبر فيها الجبرتى عن دهشته بقيام الفرنسيين بغزو مصر وانكسار المماليك أمامهم [٥١] .

أمـا بالنسـبة لعدة أحداث خلافية مثل ثورة ا اهرة الأولى وأسبابها فهو يرى أن أسباب الثورة جـاءت نتـيجة لتعطـيل أعمال واجتماعات أول برلمان عرفته البلاد فى ٢٠ أكتوبر ١٧٩٨ وليس لمجـرد الاحـتجاج على فرض الضرائب العقارية ورسوم الشهر العقارى والقروض الإجبارية [٥٢] ونتـيجة لهـذه الثورة أصدر نابليون مرسوم ٢١ ديسمبر ١٧٩٨ والخاص بتأسيس الديوان العمومى والديوان الخصوصى أو (البرلمان ومجلس الوزراء) [٥٣] .

وتتم المقارنة ما بين هذا المرسوم ودستور ١٩٢٣ والذى جاء كنتيجة لثورة ١٩١٩ [٥٤] .

ويصـبح عـام ١٨٠٠ كمـا يـرى الكاتب هو عام تحرير المرأة المصرية والذى جاء كنتيجة لمخالطة (المصريات للفرنسيين) [٥٥] .

وفـى عـام ١٩٩٩ صـدر كتاب مصر والحملة الفرنسية لمحمد سعيد العشماوى [٥٦] . وعلى العكـس مـن الـرؤية السابقة والتى سعت إلى إبراز الهبات والثورات الشعبية السابقة على الحملة الفرنسـية فـإن هذه الدراسة تذهب بعد عرض ملخص لمساوئ الحكم التركى- المملوكى إلى نتيجة مؤداها (أن مصر لم تكن لها حكومة ولا شريعة ولا نظام ولا عدل ولا أمن فى ذلك العهد الفاسد من حكـم العثمانيـين سنة١٥١٧ حتى تاريخ بداية الحملة الفرنسية) [٥٧]. وبعد استعراض آخر لأوضاع المجـتمع وحياة الشعب يصل نفس المؤلف إلى نتيجة مقاربة للنتيجة الأولى (تلك صور، تكاد تنطق بمـا فيها من بساطة التعبير وسلامة القول وبراءة القصد- يقصد استعراض الجبرتى لأحوال مصر قبل الحملة- ومنها يظهر بوضوح وجلاء أنه لم يكن يوجد شعب بالمعنى الحقيقى أو مجتمع بالوصف الصـحيح أو حكومـة بالمعايـير المعتـبرة، إنمـا توجد أخلاط متباينة وأمشاج متنافرة وقادة طغاة مستبدون، والكل على جهالة وبطالة وعماء وغشومة، وأنانية وعدوانية) [٥٨] .

وعن العلاقة بين المصريين والفرنسيين أثناء الحملة يرى الكاتب أن الألفة والمحبة جمعت بينهما حيـث {قامت بين المصريين والفرنسيين (الغزاة) محبة ومودة فصاروا كأنهم شعب واحد أو جماعة واحدة}[٥٩] وكان الفرنسيون (يدفعون ثمن ما يأكلون أو يشربون ثم يذهبون إلى حالهم دون ضجيج أو عدوان) [٦٠].

ويذهـب المؤلف إلى إعجابه بما أقامه الفرنسيون فى مصر من مدافن ومنتزهات، بالإضافة إلى المجمع العلمى والديوان.. إلخ [٦١].

أما عن أسباب ثورة القاهرة الأولى فعلى العكس من رؤية لويس عوض لأسبابها يرى العشماوى أنها قامت بسبب فرض الضرائب والعوائد على العقارات والتجارة [٦٢] ويقارن ما بين أسلوب الجمع الفرنسـى للضـرائب وهـو الأسـلوب القانونى المنظم [٦٣] وأسلوب جمع الأتراك لها وهو أسلوب

(همجى) [٦٤] ويستند إلى وصف الجبرتى لمن قام بهذه الثورة على النحو التالى {جماعة من العامة ووافقهم بعض المتعممين الذين لم يصفهم الجبرتى بأنهم شيوخ وانضم إليهم الغوغاء والحشرات (أى سفلة الأسافل) والزعر (وهم سيئو الخلق قليلو الخبرة) بلا رئيس يسوسهم ولا قائد يقودهم}[٦٥] *.

ويستند المؤلف كثيرا لأوصاف الجبرتى حول الطبقات الشعبية حيث يصفهم (بالعامة والأوباش والحشرات) [٦٦].

وبعد أن يستعرض المؤلف محاكمة سليمان الحلبى يصفه كثيرا بقاتل كليبر وبأنه (ليس بطلا وطنيا أو مجاهداً مسلما) [٦٧].

وتتم المقارنة كثيرا بين الحكم التركى الفرنسى وبيان تفوق الثانى وإنسانيته على الأول بمراحل ويتكرر كثيرا- فى أنحاء متفرقة من الكتاب- السؤال عن أسباب ثورة المصريين على الحكم الفرنسى، ويتم الخروج بنتيجة مؤداها أن من قام بالثورة من المصريين قلة من العوام والغوغاء، أما بقية المصريين فكانوا يعيشون فى مودة وسلام مع الفرنسيين، وقد أقام الفرنسيون العديد من الإصلاحات فى مصر بعكس الأتراك الذين أهملوا مصر (كل هذا الإهمال واستبعدوا أهلها ولم يضبطوا فيها الأعمال الإدارية ولا أقاموا أى إنشاءات مادية) [٦٨] وبالنسبة لأحوال مصر بعد خروج الحملة فقد عادت إلى أسوأ مما كانت عليه قبل مقدم الحملة [٦٩].

تتفق الرؤيتان السابقتان فى التأكيد على أن النهضة العربية الحديثة قد بدأت مع مقدم الحملة الفرنسية إلى مصر فى عام ١٧٩٨ وإن كان لويس عوض بحث فى ثورة همام أمير الصعيد لينقب عن نقطة البداية فى الصراعات الوطنية والطبقية من خلال رصد هبات الجماهير ضد الولاة العثمانيين وبكوات المماليك [٧٠] ، أما سعيد العشماوى فيعتبر الفترة السابقة على الحملة الفرنسية فترة مظلمة أشبه ما تكون بالعصور الأوروبية المظلمة. وانطلاقا من أن الكتابة فى التاريخ لا تتسم بالحياد أو البراءة تحول هذان العملان من التاريخ إلى الإيديولوجية أو إلى أدلجة مفرطة للتاريخ، فبعد أن يتحدث لويس عوض عن ثورة القاهرة الأولى يقارن بينها وبين ثورة ١٩١٩ (بهذا المعنى نستطيع أن نقول فى اطمئنان أن ثورة القاهرة الأولى قد أسفرت عن انتصارات ديمقراطية محققة، وإذا أمكن أن نسمى مرسوم ٢١ ديسمبر ١٧٩٨ بتأسيس الديوان العمومي والديوان الخصوصى أو البرلمان ومجلس الوزراء دستور ٢١ ديسمبر ١٧٩٨ استطعنا أن نقول إن ثورة ١٧٩٨ على بونابرت أسفرت عن دستور سنة ١٧٩٨ بمثل ما أسفرت ثورة ١٩١٩ عن دستور ١٩٢٣ مع الاختلاف طبعا فى الظروف وفى أبعاد الفكرة الديمقراطية وبمثل ما أسفرت ثورة ١٨٨٢ عن دستور ١٨٨٢ المجهض) [٧١].

ومع اعتبار ثورة القاهرة الأولى ثورة شعبية وثورة ١٩١٩ ثورة شعبية بالمثل ينحى المؤلف من التاريخ إمكانية نجاح الثورات العسكرية، ١٨٨٢ وربما أيضا ١٩٥٢، فعام تأليف الكتاب لم يكن يسمح للمؤلف أن يقولها صراحة خاصة وهو محمل بإحساس الهزيمة (منذ أن دخلنا امتحان ٥ يونيو بدأ عديد من الكتاب فى استقصاء الأسباب والنتائج) [٧٢] والولاء للثورات الشعبية يؤيده المسكوت عنه فى حديث لويس عوض الطويل عن "الوفد المصرى" الذى تشكل برئاسة المعلم يعقوب، والذى كان يسعى لاستقلال مصر أثناء الحملة الفرنسية [٧٣].

وما سكت عنه لويس عوض عام ١٩٦٩ أفصح عنه سعيد العشماوى بكل صراحة فى عام ١٩٩٩، فهو يقارن بين انكسار المماليك أمام الفرنسيين وانكسار الجيوش العربية أمام إسرائيل فى عام ١٩٤٨ ثم الانكسار العسكرى فى عام ١٩٥٦ ثم الانكسار فيما يشبه جلدا للذات فى عام ١٩٦٧ [٧٤].

وهناك إشكالية أخرى تثيرها قراءة لويس عوض لأوضاع مصر قبل الحملة الفرنسية وهى إشكالية البحث عن الغرب فى التاريخ، حيث يتم اعتبار ثورة همام تجربة فريدة للنظام الجمهورى الحديث وهى إشكالية كامنة فى أغلبية إن لم يكن كل أعمال التراثيين الجدد، فترتبط المعتزلة بالعقلانية والقرامطة بالتقدمية والاشتراكية والخوارج بالثورية.. إلخ وهذه الإشكالية فضلا عن أنها تفصل ثوبا من التراث على المقاييس الغربية فهى تربط الذات بالآخر ربطاً لا فكاك منه.

ثم هناك أيضا إشكالية تحميل النصوص بمفاهيم ودلالات أكثر مما تحتمل هذه النصوص، مثل الحديث عن الروح القومية المصرية* ونشأة الفكرة الديمقراطية [٧٥] ونشأة الوزارة الأولى والبرلمان الأول والدستور الأول.. إلخ.

وهناك ظاهرة أخرى أثارها كتاب سعيد العشماوى وهى ظاهرة التعالى إن لم يكن احتقار الناس، حيث التأكيد من خلال فقرات مطولة داخل الكتاب واستنادا إلى الجبرتى على عبارات العوام والحشرات والزعر وسفلة الأسافل.. إلخ مع رفض أى مقاومة يبديها هؤلاء فى مقاومة الغزو العسكرى.

ثانيا: الحملة الفرنسية وإجهاض محاولات التحديث الذاتية:

تنطلق هذه الرؤية من مقولات ووجهات نظر تتناقض كليا مع أطروحات الرؤية السابقة بل تتهم هذه الرؤية أصحاب الرؤية السابقة بالدعوة إلى التغريبية حيث يرى جلال كشك فى كتابه ودخلت الخيل الأزهر [٧٦] أن الرؤية الخاصة التى تعتبر الحملة الفرنسية بداية تحديث ونهوض مصر رؤية

تغريبية تربط الغرب بالتحديث، أما التحديث الحقيقى فيكون فى التمسك بالذات ورفض التغريب واتباع النموذج اليابانى فى التحديث [٧٧] ويصف جلال كشك من يتبنى هذه الرؤية بأنه من أتباع (المدرسة الاستعمارية فى تفسيرها للتاريخ) [٧٨] .

ويسعى جلال كشك فى البداية إلى إثبات أن مصر لم تكن مستعمرة عثمانية غارقة فى ظلمات العصور الوسطى، ويعتمد فى ذلك على عدة مظاهر مثل استيلاء بكوات المماليك على السلطة فى مصر منذ منتصف القرن السابع عشر [٧٩] وتناقص الجزية التى كانت تدفعها مصر إلى تركيا فى هذه الفترة [٨٠] بالإضافة إلى تحول الباشا التركى إلى ألعوبة فى أيدى بكوات المماليك حتى وصل الأمر بالمماليك إلى قتل وطرد وتجريس الولاة [٨١] ولم يتبق من سيادة تركية على مصر إلا الولاء الاسمى والمتمثل فى الدعاء للسلطان العثمانى فى خطبة الجمعة [٨٢] .

أما إثبات أن مصر لم تكن غارقة فى ظلمات العصور الوسطى فيسعى كشك إلى إثباتها على مدى فصل كامل، فمصر لم تشهد قبل الحملة نهضة فى العلوم الشرعية الدينية فقط وإنما يتم التأكيد على وجود علوم مادية تنفى (الصورة الهزلية التى يقدمها مؤرخو الحملة وتلاميذهم عن انبهار الشيوخ بتكنولوجيا الفرنسيس) [٨٣] .

حيث شهدت مصر فى تلك الفترة شيوخا يهتمون بدراسة الفلك والكيمياء والرياضيات [٨٤] ويعتمد على واقعة (مثيرة) [٨٥] أوردها الجبرتى (وهى حضور بعض طلبة الإفرنج أى من الأوروبيين وربما من الفرنسيين بالذات إلى القاهرة حيث درسوا على الشيخ الجبرتى الكبير وتبادلوا معه المعلومات والآلات العلمية، بل ويعتقد الجبرتى أن هذه المعلومات التى تلقوها من والده كانت الأساس فى التطبيقات أو الإنجازات التكنولوجية التى تحققت فى أوروبا) [٨٦] وبعد ذلك تتعارض رؤية كشك طوال العمل مع رؤية لويس عوض، فالمؤسسات التى أقامها نابليون فى مصر يتم وصفها بالمؤسسات الاستعمارية [٨٧] والديوان (ليس أكثر من جهاز لجمع الضرائب والغرامات) [٨٨] والحكم الفرنسى بصفة عامة حكم استعمارى يعتمد على (القانون الاستعمارى) [٨٩] أما ثورة القاهرة فقد نشبت نتيجة للإحساس الوطنى وليس تمرداً على (إصلاحات الفرنسيين) [٩٠] ولم تبدأ الثورة كذلك بسبب الضرائب (فكما يعترف هيرولد نفسه إن الذين قاموا بها هم العامة الذين لا يدفعون الضرائب) [٩١] ولم تكن الأوضاع الاقتصادية السبب فى قيام الثورة فقد شهدت هذه الفترة انخفاضا ملحوظا فى الأسعار [٩٢] .

فالثورة كما يراها جلال كشك قامت لسبب رئيسى وهو (التناقض بين الشعوب والاستعمار) [٩٣] ثم يستمر كشك فى رفض رؤية لويس عوض فعام ١٨٠٠ كما يراه كشك هو عام تحرير المرأة (من

تحت الزنار) [٩٤] وبالنسبة لنابليون فهو عند كشك . جال وهناك فصل كامل بعنوان (الـدجال يـدخل القاهرة) [٥٦].

ويعقد نفس المؤلف فصلا كاملا لمحاكمة سليمان الحلبي ويتم وصفه بـ (شهيد الإسلام وشهيد العروبة وشهيد مصر) [٩٦] تمشيا مع إهداء الكتاب (إلى سليمان الحلبي بطل الوحدة العربية يوم كان طريقها عبر الأزهر) [٩٧] .

أما مصطفى عبد الغني فبالإضافة إلى إهداء كتابه إلى سليمان الحلبي يزيد في الإهداء أطفال بحر البقر وملجأ العامرية وقانا وانتفاضة الأقصى وشهداء الحملة الأمريكية [٩٨] .

وتنطلق رؤية المؤلف من المقارنة بين الحملة الفرنسية بوصفها استعمارية بحتة لا علاقة لها بالتحديث حيث (إنها لم تأت إلى مصر الغائبة) [٩٩] والحملة الأمريكية والهجوم الأمريكي المتكرر على العراق، ويتم تشبيه بوش بنابليون (مع تغير الظروف) [١٠٠] ويرى الكاتب أن الحملة الفرنسية ليست أكثر من حملة (صليبية ثامنة) [١٠١] .

وبالنسبة لمصر قبل الحملة فإن المؤلف يرى أن النصف الأخير من القرن الثامن عشر قد اشتمل على ممهدات للتطور العربي (فإننا نستطيع أن نعيد النظر فيه إلى التاريخ الفكري لنا، لنرى أن أخصب فترات تاريخنا كانت هذه الفترة وقبل أن تأتي الحملة الغربية إلينا لقطع سياق التطور العربي) [١٠٢] .

ثم يعدد المؤلف في عدة صفحات أسماء العلوم التي شهدت نهضة في تلك الفترة مثل الفلك والطب والرياضيات... إلخ فهذه الفترة قد شهدت (تيار التجديد الفكري في مجالات أخرى كثيرة، جاوزت التصوف إلى كثير من العلوم العقلية من علم الفلك إلى الصيدلة إلى الرياضيات إلى المنطق إلى الفلسفة) [١٠٣] .

ويرى مصطفى عبد الغني أن الغرب عنصري وأن الحملة جاءت في إطارين هما العولمة التي تقوم بها أمريكا الآن، والقيام بعبء الرجل الأبيض في تمدين العالم واستمرارا للدور الفرنسي ثم الإنجليزي فيما بعد [١٠٤] وفي رأيه أن كتاب "وصف مصر" حمل رؤى استشراقية عنصرية ولا يعدو أن يكون وصفا لفرنسا وليس وصفا لمصر [١٠٥] .

ويعتبر المؤلف الحملة بداية نكبات مصر في العصر الحديث ويربط ما بين نابليون والغرب من ناحية وإسرائيل من ناحية أخرى، إذ سمح الصراع الدولي والذي بدأه نابليون على هذه المنطقة بزرع إسرائيل فيما بعد [١٠٦] وبالنسبة للمقاومة التي شهدتها الحملة والمتمثلة في ثورتي القاهرة

الأولى والثانية فقد كانت بسبب شراسة جنود الحملة ضد المصريين (١٠٧) ويذهب المؤلف فى نهاية كتابه إلى عدم وجود آفاق مشتركة بين مصر والعرب عامة وفرنسا وحضارة الغرب (١٠٨) .

وهناك شخصيات اتسمت بأوصاف سلبية فى هذا العمل، كل من يرى أن الحملة قد أثرت بالإيجاب فى التطور العربى يتبع المدرسة الاستشراقية فى التاريخ (١٠٩) والغريب أن يعتبر المؤلف أن لويس عوض من الذين عارضوا الحملة (١١٠) ويصف نابليون بأنه (أبو العولمة) (١١١) .

ويعتمد المؤلف فى مصادره على الجبرتى وليلى عنان فى كتابها الحملة الفرنسية تنوير أم تزوير؟، ونللى حنا فى تجار القاهرة فى العصر العثمانى وبيتر جران فى الجذور الإسلامية للرأسمالية (١١٢) .

ويتبقى من هذا العرض إشارة المؤلف إلى السبب المباشر الذى جعله يتخذ هذا الموقف المعارض للحملة الفرنسية، ويتلخص هذا السبب فى الهجوم المتوالى على الأمة العربية والإسلامية، وهو الأمر الذى جعل المؤلف ينصرف عن الجدل الثقافى الدائر حول الحملة المؤيد/ المعارض وينتمى إلى الرأى العام (ومن هنا وجدتنى أقف فى معسكر واحد مع هذا العقل الجمعى) (١١٣) فالكاتب (لابد أن يكون معبرا عن الرأى العام، معارضاً للسائد والمتخلف) (١١٤) .

وتقوم رؤية ليلى عنان للحملة الفرنسية على إقصاء هذه الحملة من التاريخ الفرنسى والثقافة الفرنسية ذاتها باعتبارها آخر أساطير هذه الثقافة (١١٥) حيث تهدف المؤلفة إلى (دراسة أسطورة الحملة على مصر عند الفرنسيين أنفسهم، نشأتها، وتطورها، وما يمكن أن يفسر انتشار تلك الأسطورة بينهم) (١١٦) وتعتمد المؤلفة على المصادر الفرنسية فى الأغلب (ولذا كان على الدراسة التى ستبحث من خلال الكتب الفرنسية ما دار حول الحملة أثناء قيامها وبعدها والتى لن تلجأ بطبيعة الحال إلى الكتب العربية إلا للضرورة القصوى) (١١٧) ولا تهتم هذه الدراسة بالدرجة الأولى بإبراز أحداث الحملة بقدر ما تسعى إلى التأصيل لفكرتها فى التاريخ الفرنسى وفى الأدب وعند المؤرخين، ولذا يقسم الجزء الأول من الدراسة إلى فصول بهذه العناوين: الحملة فى تاريخ الثورة، نابليون بونابرت الجنرال والإمبراطور، أسس أسطورة الحملة ونابليون، الأسطورة عند الأدباء، الأسطورة عند المؤرخين. وفى الجزء الثانى من الدراسة تتابع المؤلفة أحداث الحملة على مصر من خلال الاعتماد على المصادر الفرنسية التى أرخت للحملة وذلك استخداما لأسلوب وشهد شاهد من أهلها والتى تجعله المؤلفة عنوانا لأحد فصولها (شاهد من أهلها المعاصرين) (١١٨) وتستمر المؤلفة فى نقد وتحليل الحملة من خلال وجهة النظر الغربية حتى تصل إلى النتيجة التالية فى نهاية كتابها (انهارت صورة الأمريكى الطيب كما انتهت أسطورة الحروب الصليبية. إن الغرب يعترف الآن أنها كانت

حروبا استعمارية أكثر مما كانت حروبا دينية، كما أصبح يعترف بالفظائع التى اقترفها الصليبيون فى الأرض المقدسة واستمر جيل "تحطيم الأساطير" فأتى على أسطورة "الثورة الكبرى" ورسالتها السلمية العالمية) (١١٩) *

ويلاحظ أن المؤلفة لم تعتمد على الجبرتى، بعكس الدراسات السابقة إلا للضرورة القصوى وترجع ذلك إلى سببين:

يتمثل الأول فى أمانة الجبرتى كمؤرخ (وهى سلاح ذو حدين لأنه لم يرو إلا ما كان متأكدا منه، أو واثقا كل الثقة بمصدره ومن ثم يظن القارئ أن الثورات والمقاومة الشعبية لم تحدث إلا فى القاهرة والإسكندرية، وهما اللتان لم يتحدث الجبرتى إلا عنهما، ولا نعرف منه إلا النزر اليسير عما حدث فى الأقاليم والوجه القبلى) (١٢٠)

أما السبب الآخر فهو أن الجبرتى (مثله فى ذلك مثل غالبية المؤرخين كان ذاتيا فى كتابته: جاءت نظرته الطبقية لتؤثر بشدة على أحكامه التى توصف أحيانا بأنها غير وطنية فتحولت عند قرائه إلى رؤية المصريين كلهم) (١٢١) .

تحمل هذه الرؤية هى الأخرى العديد من إشكاليات وظواهر وعيوب الخطاب العربى الحديث والمعاصر.

أول هذه الظواهر هى ظاهرة التخوين والتكفير التى تشيع فى الخطاب العربى المعاصر مؤخرا، وهى تنطلق من الرؤية الإسلامية/ العلمانية الانشطارية. فجلال كشك يصف لويس عوض بأنه عميل المدرسة الاستعمارية فى تفسير التاريخ، وبعد أكثر من ربع قرن يصف مصطفى عبد الغنى وجهه النظر المؤيدة للحملة الفرنسية بأنها تتبع وجهة النظر الاستشراقية، وهى عبارات واصطلاحات تدخل فى قاموس الصور الذهنية المتبادلة بين الإسلاميين والعلمانيين وتمتلئ بها كتبهم وتعبر عن النفى الفكرى للآخر من خلال استخدام أعز ما يملكه القارئ وهو الدين/ الوطن.

الظاهرة الثانية هى الإسقاط التاريخى والرغبة فى الحياة داخل ماض لن يستعاد أبدا حتى لو أدى ذلك إلى تضخيم الماضى بصورة لا تاريخية، فمصطفى عبد الغنى يعتبر الفترة السابقة على الحملة الفرنسية أخصب فترات تاريخنا، وهو رأى يجافى التاريخ ويعترض عليه أبسط قارئ لأى تأريخ تراثى تناول هذه الفترة من أمثال ابن إياس الحنفى أو عبد الرحمن الجبرتى.

أما الإشكالية الأساسية التى تثيرها هذه الأعمال فهى إشكالية الموقف من الغرب ولا أقصد الموقف العسكرى وإنما الموقف الحضارى وموقفها من رفض الغرب واضح من خلال كتابات هذه

الرؤى وإنما تشتمل هذه الرؤى على آليات فكرية تضخم هذه الإشكالية وتضيف إليها أبعادًا مركبة بحيث تؤدى فى النهاية إلى حالة من حالات الفصام الفكرى أو التخبط الثقافى.

ولعل أول آلية لاحظها الباحث داخل هذه الرؤى هى الولع الخفى والمسكوت عنه بالغرب فجلال كشك يعتمد كثيرا على كريستوفر هيرولد مؤلف كتاب نابليون فى مصر، ويدعم وجهة نظره بآرائه، أما مصطفى عبد الغنى فيعتمد على بيترجران- الجذور الإسلامية للرأسمالية، أما ليلى عنان فمعظم إن لم يكن كل مصادرها غربية وهى تنهى كتابها معلقة على الحروب الصليبية على النحو التالى (إن الغرب يعترف الآن أنها كانت حروبا استعمارية أكثر مما كانت حروبا دينية، كما أصبح يعترف بالفظائع التى اقترفها الصليبيون فى الأرض المقدسة واستمر جيل تحطيم الأساطير حتى أتى على أسطورة الثورة الكبرى) وهى آلية تخضع التاريخ القومى للمزاج والهوى الغربى- إن جاز هذا التعبير. فلابد أن نغير مسلمة تاريخية تعلمناها وهى أن الحملة الفرنسية قد أيقظت الشرق من سباته لأن الغرب خرج علينا يوما ليقول لنا إنه أخطأ فى المسلمة التاريخية الأولى التى علمنا إياها وهو أسلوب فى التفكير يشيع فى مجالات ثقافية متعددة لعل أبرزها التفسير العلمى للقرآن الكريم فيتم ربط النص الثابت بالنظريات العلمية الغربية المتغيرة وهنا يتم ربط التاريخ القومى وما حدث على أرض الواقع بهوى الباحثين الغربيين حيث تدعم الاتجاه لنقد الحملة الفرنسية بعد أطروحة بيترجران الجذور الإسلامية للرأسمالية.

أما الآلية الثانية فتطلق من مقولة مركزية داخل الخطاب الفكرى للتيار الإسلامى وهى أن المسلمين علموا أوروبا فى فترة من الفترات وأن عودة هذه العلوم إلينا تكون بمثابة البضاعة التى ردت إلينا يتضح ذلك من تعداد هذه الأعمال لأسماء العلوم التى كانت موجودة فى مصر قبل الحملة.

أما الآلية الثالثة فهى وضع نموذج غير غربى استطاع اللحاق بالغرب ومقارنته بالنموذج العربى الإسلامى فكشك يرى ضرورة الاقتداء باليابان وتكثر الأعمال المتابعة لهذا الموضوع (١٢٢) مع إهدار لكل سياقات الاختلاف بين الحضارتين فاليابان مثلا لم تخض حروبا تاريخية طويلة ضد أوروبا كما فعل العرب والمسلمون، واليابان لا تمتلك منظومة ثقافية شمولية لكل أوجه الحياة كالثقافة العربية الإسلامية، والغرب قد سمح مؤخرا لليابان بالصعود مع تقليم أظافرها العسكرية... إلخ (١٢٣) .

وهناك ظاهرة أخرى امتلأت بها هذه الأعمال وهى الإحساس الطاغى بالهزيمة والانكسار الحضارى والعسكرى أمام الغرب منذ قرنين وعلى اختلاف المراحل الفكرية والتاريخية المختلفة ويلخصها مصطفى عبد الغنى فى إهدائه للكتاب إلى سليمان الحلبى (فرنسا) وأطفال بحر البقر وملجأ

العامرية وقانا وانتفاضة الأقصى (إسرائيل) والحمد الأمريكية (أمريكا) وفى مكان آخر يضيف الإنجليز، وهى رؤية تخضع لما يفعله ويقوم به الآخر مع سلبية تامة قد تبدو واقعية على المستوى السياسى من قبل الذات ولكنها مأساوية على المستوى الثقافى والفكرى.

وهناك ظاهرة أخرى أفرزتها رؤية مصطفى عبد الغنى للحملة الفرنسية وهى ظاهرة تردد المثقف وتغيير مواقفه وآرائه خلال فترات قصيرة فهناك رؤية أخرى لمصطفى عبد الغنى عن الحملة الفرنسية وردت فى كتابه تيارات الفكر العربى المعاصر والذى صدر فى عام ٢٠٠١ [١٢٤] فى نفس عام صدور الكتاب الأول (حقيقة الغرب بين الحملة الفرنسية والحملة الأمريكية) ومقدمته تمت كتابتها فى عام ١٩٩٩ [١٢٥] أى بعد عام من صدور الكتاب الأول على شكل مقالات فى الأهرام.

والكتاب الجديد يتناقض مع الكتاب الأول فى عدة مواضع، فالحملة الفرنسية أصبحت (صدمة التغيير الحضارى التى عرفها المصريون على دوى مدافع بونابرت والتى كانت كافية لا لبحث فكرة المواجهة وإنما لنشأة اضطراب لازم بنية المجتمع العربى طيلة تطوره حتى اليوم، ومهما يكن من آثار الحملة على الشرق فقد خلقت بالنسبة إلى الدور الحضارى أثرا ما مثل عمقا لا يمكن تجاهله لمن يحاول رصد حركة الفكر المصرى فى هذه الحقبة) [١٢٦] وهو ما يناقض الرؤية السابقة والتى ترى أن الحملة لا علاقة لها بالتحديث ولم تقم بأى دور حضارى فى وقتها.

وكما اعتمد هو وكشك على الجبرتى فى إيراد أسماء العلوم التى عرفتها مصر قبل الحملة يعتمد أيضا على الجبرتى* لإثبات أن مصر كانت خالية من أى علم مادى قبل الحملة (والعودة أكثر إلى الوراء نرى أن ذلك كان أكثر وضوحا فى العصريين الأيوبى والمملوكى (١١٩٦-١٥١٧)- يقصد التراجع العلمى والفكرى- ويمضى فيه العصر العثمانى ويصل أقصاه عند وصول بونابرت إلى أرض وادى النيل عام ١٧٩٨، فإذا بنا أمام فقهاء أو علماء لا يعرفون أى شئ- كما سنرى- من "العلوم الرياضية، فلا يرونها إلا على أنها من فروض الكفاية إذا قام به البعض سقط عن الباقين") [١٢٧] *

إذن فمصر كانت هنا غائبة بعكس الرؤية الأولى، ويمتلىء الكتاب وفى أجزاء متفرقة منه بدور الحملة فى إثارة الوعى المصرى والعربى بأهمية التقدم والتحضر وليست بداية لنكبات مصر كلها كما كان يرى من قبل.

كيف يكن تفسير هذا التناقض...؟ هل يمكن تفسيره من خلال ظاهرة تردد المثقف بين التيارات الثقافية المختلفة فنرى الإسلامى يتحول إلى المعسكر العلمانى أو العكس ولكن هذه العملية تتم خلال

فترة زمنية طويلة (طارق البشرى- محمد عمارة- مصطفى محمود.. إلخ) أما أن يتم هذا التبدل فى خـــلال عام أو عامين فهى ظاهرة لا يمكن ردها إلى تغيير المواقع الفكرية وإنما يمكن ردها فى ظن الباحـــث إلـــى الســـبب الذى دفع مصطفى عبد الغنى إلى تأليف مقالاته التى جمعها فى كتاب (حقيقة الغرب) وهو (ومن هنا وجدتنى أقف فى معسكر واحد مع هذا العقل الجمعى) فالكاتب (لابد أن يكون معبرا عن الرأى العام معارضا للسائد والمتخلف)، السبب يكمن فى طبيعة الجمهور المتلقى فجمهور الأهــرام ومكتـــبة الأسرة- حيث صدر كتاب حقيقة الغرب- فى معظمه لا يمثل النخبة المثقفة مثل جمهور كتاب تيارات الفكر العربى المعاصر الصادر عن المجلس الأعلى للثقافة، وما كان يمكن فى ظـــن الباحث أن يكتب سعيد العشماوى كتاباته عن الأوباش والعوام وسفلة الأسافل فى الأهرام وهى ظاهرة تعبر عن الخوف النخبوى من الناس*.

ثالثا: الرؤية الوسط بين النقيضين (الرؤية التوفيقية للحملة الفرنسية)

بخـــلاف وجهتى النظر المؤيدة/ المعارضة للحملة توجد وجهه نظر ثالثة ترى فى الحملة غزوا عســكريا ولكـــنها لا تـــرفض الوجه الحضارى للحملة ولا ترفض الثقافة الفرنسية بصفة خاصة أو الغربـــية بصفة عامة. ويعبر عن وجهه النظر هذه كتاب نعم لفولتير لا لبونابرت لأحمد عبد المعطى حجازى والذى كان هو الآخر عبارة عن مجموعة مقالات تم جمعها ونشرها فى كتاب صدر فى عام ١٩٩٨ (١٢٨) .

تنطلق وجهة نظر عبد المعطى حجازى من اعتبار فرنسا (حقيقة ثقافية) (١٢٩) وتتبع هذه الحقيقة مـــن اعـــتماد حركة الاستنارة المصرية على تراث التنوير الفرنسى ابتداء من الطهطاوى والذى كان (أول مـــثقف عـــربى يقـــرأ فولتير ويتحدث عنه) (١٣٠) مرورا بطه حسين ومنهجه فى كتابة التاريخ والـــذى تأثر فيه بفولتير وانتهاء بأثر فولتير فى العديد من الأسماء الثقافية فى تاريخنا المعاصر (١٣١) ويـــرى المؤلف أن العرب يستطيعون كسب الفرنسيين إلى صفوفهم وخاصة فى ظل الصراع الثقافى الفرنسى الأمريكى الدائر حاليا (١٣٢) .

ويصـــف المؤلـــف الاتجـــاه الإسلامى الرافض للحملة بالاتجاه (الساذج) (١٣٣) والذى لا يعرف الـــتاريخ ويخلـــط بيـــن الفـــترات الزمنـــية (ومـــع ســـذاجة هذا الاتجاه وغفلته وخلطه المعيب بين الإمبراطوريات المقدسة والدول القومية وبين الحروب الدينية والحروب الاستعمارية وبين الجهاد فى سبيل النفط والجهاد فى سبيل المسيح، أقول مع سذاجة هذا الاتجاه وخلطه بين الأزمنة والدول والنظم

السياسية والأهداف المختلفة، فهو اتجاه رائج يستعى عند عامة الناس نفورهم الطبيعى من الغرب الاستعمارى ويحول هذا النفور إلى عداء مستحكم لكل ما هو أجنبى) [١٣٤] .

وبالنسبة للاتجاه الوطنى الذى يرفض الحملة لأسباب وطنية فيرى المؤلف أن أصحابه يتمسكون بالعناد الطفولى (وهناك آخرون يقاومون الاحتفال هم أيضا لأسباب عثمانلية كما يفعل الأولون ولكن لأنهم وطنيون مصريون فبوسعنا أن نفهم لغتهم وإن لم نتفق معهم كل الاتفاق. هؤلاء السادة لا يرون فى حملة بونابرت إلا وجهها العسكرى وهذا جحود لا تفرضه الوطنية وعناد طفولى لا ينفى الحقيقة ولا يغيرها) [١٣٥] .

وعلى هذا الأساس يقسم المؤلف وجهات النظر حول الحملة الفرنسية إلى ثلاثة اتجاهات:

١-اتجاه وطنى متشدد لا يرى فى حملة بونابرت إلا غزوة استعمارية.

٢-واتجاه معتدل لا ينكر أن الحملة الفرنسية كانت غزوة استعمارية، لكنه يرى مع هذا أنها ساعدت مصر على اكتشاف نفسها واكتشاف أوروبا .

٣-واتجاه آخر لا نملك إلا أن نصفه بالسذاجة مع علمنا بأنه ضالع فى الجريمة والغ فى الدماء [١٣٦]

أما بونابرت فيرى المؤلف أنه اعتمد فى منشوره على الحجج الدينية ليقنع المصريين بحملته على أساس (أن المصريين مازالوا يقيمون علاقاتهم مع كل شئ على أساس العقيدة الدينية كما كان الأمر فى العالم كله طوال العصور الوسطى، أما المصالح القومية التى أصبحت أساسا لكل شئ فى العصور الحديثة فالمصريون لا يولونها أى اعتبار) [١٣٧] .

ووجهة نظر المؤلف تتلخص فى أن (الحملة الفرنسية لم تكن غزوة استعمارية فحسب بل كانت بها جوانبها الثقافية والحضارية التى بدأت منها نهضتنا الحديثة فى أوائل القرن الماضى وهذه حقيقة أخرى لا تحتاج إلى جدل كثير أو قليل. كان يكفى إذن أن نعلن على الناس أننا نحتفل بالنهضة المصرية الحديثة وبعلاقاتنا الثقافية مع فرنسا، وبالأخوة التى تجمع بيننا وبين جميع شعوب الأرض ولا نحتفل طبعا بالغزوة فلا يبقى سبب واحد يبرر الهجوم على الاحتفال) [١٣٨] .

تحاول هذه الرؤية إذن أن تجمع ما بين الحسنيين رفض الغزو الاستعمارى مع قبول الحضارة الوافدة ولكنها فى سبيل تأكيد هذه الفكرة تنفى كل وجهه نظر مخالفة لها، فالتيار الإسلامى يتصف بالسذاجة والتيار الوطنى يتمسك بآرائه فيما يشبه العناد الطفولى وتضع خلافا جذريا بينها وبين الرؤية الإسلامية مما يستحيل معه الحوار معها. على عكس الرؤية الوطنية التى يمكن التفاهم معها وهى رؤية تشطر الوطن إلى شطرين توفيقى- وطنى/ إسلامى وتشطر الغرب إلى شطرين فرنسا/

أمريكا مما يجعلها تقع فى ثنائيات الخطاب التوفيقى التقليدى والذى تحدث عنه الكثيرون وتعتبر امتدادا تاريخيا لرؤية ثقافية قادمة من عصر ما قبل ثورة ١٩٥٢ عندما تجادل طه حسين والعقاد حول الثقافتين الفرنسية والإنجليزية.

المحور الثالث: الحملة الفرنسية كما يراها الآخر

ترجع أهمية دراسة بيتر جران الجذور الإسلامية للرأسمالية [١٣٩] فى اعتماد التيار المعارض للحملة الفرنسية عليها، بالإضافة إلى صدورها عن مفكر أمريكى يسارى. وقد أثارت الجدل فور صدورها فى عام ١٩٧٩ سواء فى العالم العربى أو فى الدوائر الغربية المهتمة بهذا الموضوع [١٤٠].

يرفض بيتر جران منذ البداية اتخاذ عام ١٧٩٨ بداية للتحديث والنهوض فى مصر [١٤١] * والدراسة تعتمد على أطروحتين أساسيتين:

الأولى: أطروحة اقتصادية ترى أن الهجوم الفرنسى على مصر قد أضر بالطبقات الوسطى المصرية [١٤٢].

الثانية: أطروحة ثقافية تركز على الإحياء الصوفى فى منتصف القرن الثامن عشر كما أنها تتبع سيرة الشيخ حسن العطار كرمز للنهضة الثقافية التى شهدتها مصر قبل مجىء الحملة إليها.

بالنسبة للأطروحة الأولى، يبدأ بيترجران تاريخه للنهضة المصرية فى القرن الثامن عشر بتولى على بك الكبير مشيخة البلد فى عام ١٧٦٠ [١٤٣] وهى الفترة التى أصبح فيها المماليك من القوة بحيث طمحوا إلى الاستقلال بمصر عن السلطة العثمانية من ناحية، وشكلوا نخبة حاكمة قوية من ناحية أخرى، فالطبقة العليا المصرية تشكلت آنذاك من المماليك والموظفين الرسميين وبعض أغنياء المصريين [١٤٤].

ثم يرصد المؤلف ملامح الطبقة الوسطى والتى تشكلت من التجار المصريين والعلماء ونخبة الحرفيين [١٤٥].

أما الطبقة الدنيا فقد تشكلت أساساً من صغار الحرفيين المتجولين أو أصحاب المهن نصف المشروعة [١٤٦].

والمؤلف يرى أن حملة نابليون قد أضرت بتجارة العلماء والتجار من الطبقة الوسطى وخاصة أن نابليون قد حاول أن يتحالف مع هذه الطبقة من خلال قانون التسجيل، وهو القانون الذى اكتسب

به نابليون نحو ثلثى أراضى الدولة للطبقتين العليا والوسطى بعد أن كانت الأرض حكراً على المماليك وقلة من المصريين [١٤٧] .

ولكن سياسات نابليون من خلال الضرائب التى فرضها على الممتلكات بمدينة القاهرة بعد هزيمته فى سوريا قد أضرت كثيراً بمصالح الطبقة الوسطى وأصابتها فى مقتل [١٤٨] .

وهنا يبرز المؤلف دور شرائح الطبقة الوسطى وتحالفها مع نابليون حتى أنها لم تقم بثورتىّ القاهرة الأولى والثانية إلا نتيجة للضرائب المتدرجة ولسلوك الكثير من جنود الحملة الفرنسية المنافى للتقاليد الإسلامية فى رمضان [١٤٩] ، وعلى الرغم من إبراز المؤلف لدور الطبقة الوسطى ودورها فى التجارة وفى الثورتين فإنه يؤكد فى مكان آخر أن بنية التجارة فى مصر كانت محدودة [١٥٠] وأن الشرائح المصرية من الطبقتين العليا والوسطى لم تشكل طبقة تكون قادرة على إسقاط النظام المملوكى فى مصر قبل الحملة الفرنسية (ورغم ذلك بقى النظام حتى العقد الأول من القرن التاسع عشر، فلم تكن هناك طبقة صاعدة من داخل مصر تعمل على إسقاط هذا النظام) [١٥١] ويرى أن تقدم مصر فى عهد محمد على يرجع إلى (أنه نفسه كف عن أن يكون مملوكاً) [١٥٢] .

يرسم بيتر جران صورة للأوضاع الاجتماعية والاقتصادية فى مصر قبل وأثناء الحملة الفرنسية قد تبدو متناقضة فى مواقع كثيرة من هذا العمل، فالصورة تقوم فى الأساس على افتراض وجود طبقة وسطى تتكون من شرائح وتمارس التجارة ولها مصالح اقتصادية واجتماعية وقد أضيرت هذه الطبقة نتيجة للحملة الفرنسية على مصر، ولكنه يناقض هذه المقولات فى مواقع أخرى فالتغلغل الأوروبى التجارى كان موجوداً فى مصر وبصورة ضخمة قبل قدوم الحملة [١٥٣] وابتداءً من عام ١٧٩٠ تزايدت الصراعات بين المماليك كما تراكمت السلع الكمالية الأوروبية فى السوق المصرية. وقبل هذا التاريخ شكل التجار الأجانب فى مصر طبقة استطاعت أن تؤثر فى السوق المصرية. الداخلية وتعجل بتدهور الطبقة الوسطى المصرية [١٥٤] – قبل مقدم الحملة، ولعل تحيز المماليك للتجار الإنجليز على حساب التجار الفرنسيين كان من الأسباب المباشرة للحملة [١٥٥] وعلى الرغم من تأكيد المؤلف بعد كل ذلك على وجود طبقة وسطى مضرية فإنها كانت من الضعف حتى فى حال تحالفها مع الطبقة العليا على إسقاط النظام المملوكى، أما نابليون فهو أحياناً يضر بسياساته الطبقة الوسطى وأحياناً يحاول إنعاشها (لقد حاول نابليون عام ١٧٩٨ القيام ببعض الإصلاحات ونجح فى تسجيل الملكية الخاصة ولكن ما أن رحل نابليون حتى عادت الفوضى) [١٥٦] .

وبالإضافة إلى هذه الصورة التى قد تبدو متناقضة فإن المؤلف يرصد الظروف الاقتصادية المصرية وملامح الطبقات المختلفة فى جزء يقع فى حوالى ثلاثين صفحة من كتابه والذى يبلغ حجمه أكثر من عشرة أضعاف هذا الرقم فى الترجمة العربية [١٥٧] .

أما الأطروحة الثانية فى هذه الدراسة فهى أطروحة ثقافية تقوم على رصد المؤلف للصحوة الثقافية والدينية التى شهدتها مصر فى القرن الثامن عشر. يرى المؤلف أن (الإسلام فى مصر يعنى الصوفية) [١٥٨] وبالتالى فأى إحياء صوفى يتم فى هذه المرحلة هو صحوة ثقافية. وعلى مدى فصل كامل يرصد المؤلف علاقة الطبقات المصرية المختلفة بالطرق الصوفية وإحياء هذه الطرق وخاصة على أيدى أفراد من الطبقة الوسطى كدليل على النهضة الدينية والثقافية التى قادتها الطبقة الوسطى آنذاك [١٥٩] .

أما مظاهر هذه النهضة فتتمثل فى الطرق الصوفية بشطحاتها وكثرة الدراويش فيها واعتمادها على الرموز والتأويلات الدينية المغرقة فى (الإشراق والجلاء) [١٦٠] و(العرفان) [١٦١] كما يعتبر أن زيارة الأضرحة فى مصر هى البؤرة الثقافية فى النشاط الثقافى آنذاك (وكانت زيارة الأضرحة فى مصر تمثل البؤرة الرئيسية فى النشاط الفكرى والروحى خلال القرن الثامن عشر وتدور الكتابات عن الزيارات حول الفضائل الخاصة أو المعجزات التى تغرى إلى زيارة أضرحة معينة) [١٦٢] .

وعلى مدى فصل كامل يرصد المؤلف الصحوة الثقافية خلال تلك الفترة فى الأدب واللغة والتاريخ [١٦٣] .

وانطلاقاً من رصده للمجالس التى كان يعقدها بعض الأثرياء يربط المؤلف بين وجود هذه المجالس ورغبة الطبقتين العليا والوسطى التجديد فى مجالات الأدب والحديث النبوى واللغة والتاريخ، ويطلق المؤلف على هذه المجالس وصف (المؤسسات الثقافية الحديثة فى مصر) [١٦٤] .

كما يرصد المؤلف الأعمال الفكرية التى شهدتها هذه الفترة والتى تعبر عن النهوض الثقافى والتى تتمثل فى (الحواشى والشروح والتقارير... إلخ فقد جاءت كتابات العلماء على هذه الصورة خلال الفترة من القرن السابع عشر حتى القرن التاسع عشر) [١٦٥] .

ويؤرخ المؤلف لنهاية الصحوة الثقافية الدينية آنذاك بعام ١٧٩٠ [١٦٦] أى قبل مجيء الحملة الفرنسية أيضاً.

أما بقية الدراسة فتدور حول الشيخ حسن العطار وإسهامه فى النهضة المصرية منذ قيامه بتأليف أول كتاب له فى عام ١٧٨٦ فى النحو وحتى وفاته فى عام ١٨٣٥ [١٦٧] .

هذه الرؤية بخلاف ما يبدو بداخلها من تناقض أحياناً إلا أنها فى الأساس تنطلق من رؤية الشرق كسحر أخاذ وكعوالم مغايرة للغرب، تقترب من الرؤى الاستشراقية التقليدية حينما ترى الإسلام هـو التصوف ولا تتوقف أمام التصوف الفلسفى بقدر ما تتوقف أمام الدراويش والأضرحة والأولياء، وهو الأمر الذى رفضته الحركة الإصلاحية فى العالم الإسلامى أثناء وبعد حملة نابليون. وسارت بعد ذلك الحركة الإصلاحية على يد جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده... إلخ، وعلى هذا الدرب استمر رفض التصوف الشعبى على يد الحركة الإسلامية والتيارات العلمانية والليبرالية بعد ذلك وحتى المشـاريع الفكرية العربية المعاصرة أو من يطلق عليهم أحياناً "التراثيين الجدد" أمثال الجابرى وحسـن حنفـى وأركون.... إلخ تمتلىء أعمالهم بنقد هذا النوع من التصوف والذى أدى إلى إشاعة الخرافة والجهـل فى المجتمعات العربية والإسلامية وأخذ أطروحة بيتر جران فى هذا الموضوع يعتبر إهداراً لجـزء كبير من الخطاب النهضوى العربى المعاصر.

أما الإشكالية الأخرى التى يثيرها هذا العمل فهى تبنى البعض له كدليل على أن حملة نـابليون أجهضت نهضة برجوازية شهدتها مصر فى نهاية القرن الثامن عشر وفقاً لأسلوب وشهد شاهد مـن أهلها وربطاً للخطاب الثقافى العربى بتقلبات الخطاب الغربى.

المحور الرابع: الأنـا تقـدم نفسها للآخر:
هل يمكن الخروج من التبعية الثقافية للغرب؟!

تعتبر نيللى حنا من الباحثات المهتمات بتاريخ مصر خلال الحقبة العثمانية عبر العديد من الكتب والدراسات والتى ترجم منها حتى الآن "بيوت القاهرة فى العصر العثمانى" و"تجـار القـاهرة فـى العصر العثمانى- سيرة أبو طاقية شاهبندر التجار" و"ثقافة الطبقة الوسطى فى مصـر العثمانيـة (ق ١٦م- ق ١٨م)" (١٦٨) *

ويرى رؤوف عباس أن مشروع نيللى حنا يقوم على دحض الأفكـار التـى روجتهـا مدرسـة الاستشراق التقليدى عن تاريخنا القومى ومجتمعاتنا، والتى ترى أن بلادنا كانت راكدة متخلفة حتـى جاء الغرب فى مطلع القرن التاسع عشر لينقذنا مما نحن فيه (١٦٩) .

ويقوم الكتاب على دراسة ثقافة الطبقة الوسطى فى مصر العثمانية خلال الفترة الممتدة من القرن السادس عشر وحتى القرن الثامن عشر. وتؤكد الباحثة فى مواضع مختلفة من دراستها انطلاقها من عدة رؤى:

١-أن دراسة الطبقة الوسطى المصرية خلال تلك الحقبة يؤكد هزل الحديث عن التدهور الثقافى الذى كان يعيشه المجتمع المصرى آنذاك (١٧٠) .

٢-أن إثبات وجود طبقة وسطى منتعشة قبل مجيء الحملة الفرنسية إلى مصر ينقض الرؤية التقليدية والتى تربط الحداثة والتحديث بالحملة الفرنسية وعصر محمد على (١٧١) .

٣-تعتمد الدراسة على فكرة المركز والأطراف وتتبنى مقولة بيترجران فى كتابه ما بعد المركزية الأوروبية، والتى يذهب فيها إلى دراسة تاريخ العالم باعتباره تاريخاً اجتماعياً للعالم وليس تاريخاً للمركزية الأوروبية، وبالتالى تطبق هذه الرؤية فى دراستها باعتبار أن الصعود الغربى الذى شهدته حقبة الدراسة لا يؤدى بالضرورة إلى تدهور المراكز الثقافية القديمة (فإنه عندما تصبح بعض المراكز الجديدة بالغة التأثير فلا يعنى ذلك بالضرورة أن المراكز القديمة قضت نحبها أو أنها أصبحت عاجزة عن العطاء) (١٧٢) *.

والمركز فى هذه الدراسة يبدأ من رفض المقولات التقليدية عن الصعود الغربى خلال فترة الدراسة وما مثله ذلك من اعتبار الغرب مركزاً ثقافياً يقابله طرف شرقى متخلف، ثم هناك المركز العثمانى وما يقابله من تصور العالم العربى كأطراف تابعة له، وتحاول الباحثة الخروج على الفكرة الاستشراقية التقليدية ولكن عبر تأييدها، فالفكرة الاستشراقية التقليدية تقوم على دراسة العالم العثمانى ككل وكطرف هامشى ومتخلف. وفى مواضع عدة من الدراسة تؤكد الباحثة على وجود ثقافة طرفية عربية متطورة عن الثقافة العثمانية، مما دفع أحد المعلقين على الكتاب إلى التساؤل (إلى أى درجة كانت مصر عثمانية أثناء الفترة العثمانية؟ أو بعبارة أخرى ماذا كان عثمانياً فى مصر العثمانية. إن هذا الكتاب يقول فى أكثر من موضع وبأكثر من طريقة أن إسطانبول لم يكن لها دور فى تشكيل ثقافة الولايات التابعة لها) وهو ما يستدعى التصور المقابل للطرح السابق (مدى تأثير هذه الثقافة- يقصد ثقافة الطبقة الوسطى- فى محيطها المباشر ثم الأوسع، ومن الممكن أن نتخيل تأثير الطبقة الوسطى فى إسطانبول بمثيلاتها فى القاهرة وحلب ودمشق) (١٧٣) .

وقد حاولت الباحثة الخروج من الدائرة العثمانية لأن (الدراسات التى تعنى بتاريخ مصر الاجتماعى استناداً إلى مصادر إسطانبول التي تمثل وثائق الدولة فى معظمها وهى دراسات كتبت لغرض معين واضح تماماً، تقدم صورة ناقصة أو مشوهة للمجتمع المصرى فى ذلك العصر) (١٧٤) .

ويلاحظ الباحث على هذه الدراسة:

١-على الرغم من الجهد المبذول فى دراسة حالة مصر الاقتصادية خلال حقبة الدراسة فإنها تؤكد فى مواضع عدة أن الطبقة الوسطى المصرية التى نشأت نتيجة لانتعاش التجارة آنذاك لم تستطع أن تغير من شكل السلطة المصرية أو أن تدخل فيها، كل ما استطاعت عمله هو إقامة مصالح تجارية مشتركة مع الطبقة الحاكمة [١٧٥] .

٢-تتوقف الدراسة عند العقود الأولى من القرن الثامن عشر باعتبارها فترة شهدت تدهوراً فى الاقتصاد المصرى بسبب قلة الطلب على المنتجات المحلية [١٧٦] ، و(حول منتصف القرن الثامن عشر كان للمؤثرات السلبية على الاقتصاد انعكاسها على ثقافة الطبقة الوسطى- عندما جرت الرياح بما لا تشتهى السفن- فأثرت سلبياً على القدرات الحركية لتلك الثقافة) [١٧٧] أى إن حملة نابليون لا علاقة لها بالجذر الاقتصادى للطبقة الوسطى أو بثقافتها، ويلاحظ أن هيمنة المركز الاقتصادية هى التى جاءت بآثار عكسية على الاقتصاد الطرفى وثقافة طبقته الوسطى، فالسكر المحلى نافسه السكر المنتج فى الأمريكتين وكذلك المنسوجات وهما من الصادرات الرئيسية [١٧٨] * .

٣-تبرر الباحثة اتجاهها إلى دراسة الطبقة الوسطى وثقافتها وعلاقتها بالثقافة الشعبية عبر العديد من المبررات ولكن ما استوقف الباحث إغراقها فى محاولة رسم طبقة وسطى على النمط الأوروبى (وعلى سبيل المثال تتحرك دراسات الثقافة الأوروبية من ثقافة عظماء الرجال مثل فلاسفة القرن الثامن عشر فى عصر التنوير الفرنسى، وتجاوزت حدود المعرفة والعلم فى المؤسسات الأكاديمية. وتتجه هذه الدراسات إلى استكشاف القوى الاجتماعية الأخرى وعلاقتها بالقراءة والكتابة والمعرفة والكتب) [١٧٩] .

وفى مجال القراءة ترى الباحثة أن انتشار القراءة والتعليم فى مصر آنذاك يؤدى إلى تشكيل طبقة وسطى على النمط الأوروبى (وعلى سبيل المثال يذهب المؤرخ الإيطالى كارلو شيبورا إلى وجود علاقة وثيقة بين معرفة القراءة والكتابة والرأسمالية التجارية والحياة الحضرية فى جنوبى أوروبا فى العصور الوسطى) [١٨٠] .

والغرب هو النموذج الأوحد للحوار سواء عبر قياس تقدمنا الغابر على تخلفه، أو تقدمه على تخلفنا، ففى الفترة التى كان التعليم ينتشر فيها فى العالم الإسلامى كانت البابوية الأوروبية تقف ضد التعليم [١٨١] .

وعلى مدى فصل كامل – الفصل الثالث من الكتاب- ترصد الباحثة تأثير الكتب وانتشارها على تشكيل ثقافة الطبقة الوسطى عبر رصدها لكتالوجات المخطوطات العربية عن الكتب [١٨٢] أو قوائم التركات [١٨٣] والتى تضمنت قوائم بكتب تركها أصحابها للورثة أو انتشار الورق [١٨٤] أو المكتبات

العامة [١٨٥] ويلاحظ إعطاء الباحثة أهمية للكتب الصوفية فى أماكن عدة من الدراسة، بالإضافة إلى انتشار الثقافة السمعية التى تنتج عن قراءة فرد لكتاب بصوت جهورى فى محيط من الأفراد [١٨٦] .

والسؤال: إلى أى مدى تستطيع الثقافة السمعية تشكيل ثقافة ناهضة؟ وهو ما أدى إلى نشأة مجالس ثقافية. وتتساءل الباحثة فى إطار الحوار مع الغرب (هل ينظر المؤرخون إلى هذه المجالس فى سياق التاريخ الثقافى على نحو ما يُنظر إليها فى التاريخ الثقافى لفرنسا وألمانيا، باعتباره مكاناً لتبادل الآراء، ومنبراً للجدل، أم نعتبرها نوعاً من وسائل التسلية؟) [١٨٧] .

٤-بعد أن تقيم المؤلفة بناءً للطبقة الوسطى المصرية يتشكل من الانتعاش التجارى وتعلم القراءة والكتابة وانتشار الثقافة عبر الكتب والثقافة السمعية، تقيم بناءً قيمياً لهذه الطبقة يتماهى مع قيم الطبقة الوسطى الأوروبية وتصورها لمفردات الحياة، بدءًا من اقتراب إمكانية قيام قيادة من هذه الطبقة (قيادة قريبة من مفهوم "القيادة العضوية" الذى صاغه أنطونيو جرامشى) [١٨٨] وانتهاءً بصياغة ثقافة شبه علمانية تهتم بالمال والعادى واليومى [١٨٩] وموقف هذه الطبقة من المرأة والثقافة الشعبية واللغة الدارجة [١٩٠] .

والغريب أن هذه السمات والتى تؤكد المؤلفة أنها كانت بحثاً من قبل أفراد الطبقة الوسطى عن الحداثة الأوروبية لا تتماهى مع الطبقة الوسطى الأوروبية آنذاك والتى أنتجت التنوير والعقلانية على نحو ما حدث فى القرون المماثلة لحقبة الدراسة فى أوروبا، وإنما هى سمات تقترب كثيراً من سمات الطبقة الوسطى المصرية المنهارة حالياً بفعل هيمنة المركز الأمريكى هذه المرة، ولا تقترب حتى من صعود هذه الطبقة الوسطى فى فترة ازدهار الحضارة العربية الإسلامية عندما كان الجاحظ يؤلف فى حرية الإرادة الإنسانية وعلم الكلام بمشكلاته العويصة ويكتب عن الجوارى والقيان والغلمان، فما مدى إمكانية شريحة من الناس تهتم بالمال والأشياء العادية وتتلقى ثقافة دينية محافظة وصوفية وتهتم باللغة الدارجة ومكائد النساء- بتعبير المؤلفة-... إلخ، ما مدى قدرة هؤلاء الناس على النهوض؟ وما مدى اتفاقهم أو اختلافهم عن الطبقة الوسطى الأوروبية، وهو سؤال سكت عنه النص تماماً؟

٥-وهناك العديد من الأفكار التى تؤيدها المؤلفة أو تعارضها، فهى تؤكد على وجود ثقافة علمية، وتعتمد على الجبرتى فى ذلك [١٩١] ، لأنه يؤكد على وجود ثقافة علمية بما يخدم أهداف الباحثة، ثم تنتقده لموقفه من ثورات العوام والزعر والحرافيش [١٩٢] ، كذلك هناك نقد للفكرة الاستشراقية التقليدية عن سيطرة الاستبداد الشرقى [١٩٣] على مجتمعاتنا أو سلبية الشرق [١٩٤] ، وعلى الرغم من رصد المؤلفة لأساليب احتجاجية عديدة قامت بها الرعية للاعتراض على السلطة

الحاكمة فإنها أساليب لم تفض إلى نتائج جذرية* وتؤكد الباحثة فى موضع بالدراسة على أن الممارسات الاقتصادية للسلطة الحاكمة أدت كثيراً إلى تدهور الطبقة الوسطى (وعندما يتحول تركيز اقتصاد الطبقة الحاكمة إلى مصالحها الريفية على حساب مصالحها الحضرية، يقل الاهتمام بالحفاظ على مصالح تلك الطبقة -تقصد الوسطى- وحمايتها ومن ثم ينتكس حالها) (١٩٥).

وتؤكد المؤلفة على دور الكتاتيب والمساجد فى تطوير ثقافة متعلمة فى (مواجهة ثقافة العلماء، ثقافة تُنسب إليهم ولا تفرض عليهم؟) (١٩٦) وهى تعطى أهمية قصوى للكُتّاب فى صياغة ثقافة الطبقة الوسطى (١٩٧) بما يشعر القارىء بخطأ الآراء الناقدة للكتاتيب ونظامها*.

٦-تنطلق هذه الدراسة كذلك من نقد المركزية الأوروبية، ولكنها فى سعيها إلى ذلك تفتت الأطراف، فالهامش هنا لم يعد الشرق أو حتى الجنوب أو الثقافة العربية الإسلامية، بل يتم تفجير الهامش من داخله إلى مركز وأطراف، وأحياناً إلى ثقافة عاصمة وأقاليم أو حضر وريف، على نحو ما تذكر المؤلفة فى مواضع عديدة من دراستها، وبالتالى هى تسعى إلى تفتيت المفتت أصلاً وإضعاف العاجز بطبعه، وهى رؤية قد تصلح فى حالة القوى والمتكامل والمهيمن فتصلح لتفتيت المركز الأوروبى من داخله، ولكنها لا تصلح فى حالتنا حيث التشظى والطائفية وغياب النسق الثقافى والرؤى الحضارية المتكاملة وربما تأتى بتأثير ما بعد الحداثة الغربية، والتى تعلى من قيم اللامعقول والهوامش والأطراف. ولكن فى ظل اتجاهات راسخة وقوية من عقلانية ونسقية وأفكار كبرى يتم التمرد عليها من داخلها. أما نحن فكيف نعلى من قيم الدروشة الصوفية واللغة الدارجة والاهتمام باليومى؟ ونحن نعانى من هيمنة هذه القيم أصلاً، وهل لأننا فشلنا فى العقلنة والعلمنة والحداثة نعود إلى قيم ما قبل حداثية بدعوى تشابهها مع ما بعد الحداثة الأوروبية لإثبات أننا لم نكن يوماً متخلفين! أم أنها مجرد التبعية المطلقة للغرب الذى قال لنا يوماً أننا كنا متخلفين وأخذنا مقولته بتسليم واعتبرنا الحملة الفرنسية بداية التاريخ وما قبلها من فترة عثمانية لا تعدو أن تكون جاهلية قروسطية، ثم يأتى الغرب ليخبرنا أننا لم نكن يوماً على هذه الدرجةِ من الجهالة فنصدقه ونلعن الحملة الفرنسية *، ثم ما الضرر فى الاعتراف بتخلفنا آنذاك أو بتخلفنا المعاصر؟ أمْ أن المسألة تتعلق بالذات العربية الجريحة التى فشلت فى تحقيق نهضتها وتعانى من التفوق الغربى المستمر فى أشكاله المتعددة.

٧-تحاول هذه الدراسة بناءً على ذلك دفع تهمة التخلف والجهل بشتى السبل، ولذلك فهى تقيم حاجزاً فاصلاً ما بين العثمانى والعربى أو المصرى انطلاقا من تركيز الاستشراق التقليدى على التاريخ العثمانى كتاريخ عام للمسلمين، وعلى اعتبار أن لفظ تركى يساوى لفظ مسلم فى المخيلة الغربية بما يرافق لفظ التركى من العديد من الأوصاف والسمات السلبية- لعل آخرها أطروحة

برنارد لويس فى كتابه "أين الخطأ؟"- ومع ذلك فالهجوم الأمريكى الأخير على الأمة الإسلامية جـــاء على تلك الولايات العربية وأستثنى تركيا والتى لها علاقات شبه ممتازة مع الولايات المتحدة، وهـــو ما يؤكد أن تحسين صورة العرب والمسلمين لا علاقة لها بالممارسات الأمريكيـــة الاقتصـــادية ذات الأقنعة الثقافية. ولن تفلح هذه المحاولات فى تحسين صورة تعرفهـــا دوائـــر الاستشـــراق الغربـــى بمراكزه البحثية ومؤسساته أكثر مما يعرفها المسلمون أنفسهم [١٩٨] .

القسم الثانى

الحملة الأمريكية: الرؤية التشاؤمية للتاريخ العربى المعاصر

تمهـيـــد:

يصف الجبرتى سنة ثلاثة عشرة ومائتين وألف على النحو التالى * (وهى أول ســنى الملاحــم العظيمة والحوادث الجسيمة، والوقائع النازلة، والنوازل الهائلة، وتضاعف الشرور، وترادف الأمور، وتوالى المحن، واختلال الزمن، وانعكاس المطبوع وانقلاب الموضوع وتتابع الأهــوال، واخــتلاف الأحوال، وفساد التدبير، وحصول التدمير، وعموم الخراب، وتواتر الأسباب ﴿وما كان ربك مهلــك القرى بُظلم وأهلها مُصلحوُن﴾ (١٩٩) .

يبدو للمتابع للخطاب العربى أن وصف الجبرتى لعام ١٧٩٨ بالأوصاف السابقة ينطبق إلى حــد كبير على الغزو الأمريكى للعراق والذى انتهى بسقوط بغداد فى يوم ٩ أبريل ٢٠٠٣، ويظهر هــذا التشابه جلياً لمتابع الصحافة المصرية قبل وأثناء وبعد الغزو من خلال تعبيرها اليومى عن مختلــف القوى الفكرية ورؤيتها لهذا الحدث. بل إن المتابع للخطاب الثقافى العربى يلاحظ أن وصف الجبرتى يتماهى إلى حد كبير مع مفردات هذا الخطاب منذ هزيمة ١٩٦٧ مروراً بانتصــار أكتــوبر ١٩٧٣ والذى تحول إلى هزيمة سياسية كما يرى البعض فى كامب ديفيد ١٩٧٩ ثم غزو بيروت سنة ١٩٨٢ واحتلال العراق للكويت فى عام ١٩٩٠ ثم الحرب الأمريكية الأولى ضد العراق فى عام ١٩٩١ ثــم سقوط بغداد ٢٠٠٣، كل هذا، بخلاف تعقيدات وإشكاليات القضية الفلسطينية، يعطى انطباعــاً بــأن العرب يعيشون مأساة تشبه إلى حد كبير الملاحَم العظيمة والحــوادث الجســيمة والوقــائع النازلــة والنوازل الهائلة.. كما يرى الجبرتى، ومما يعطى الأحداث طابعاً دراماتيكياً يتضاءل بجواره إحساس الجبرتى بالمأساة.. هو أن العرب اعتادوا الهزائم فى العصر الحديث، وبالتالى لا ينطبق عليهم الشق الثانى من الجبرتى "وانعكاس المطبوع وانقلاب الموضوع وتتابع الأهوال واختلاف الأحوال" وهــى الجملة التى تعبر عن إحساس الجبرتى بالمرارة للغزو الفرنسى الذى جاء لحضارة كان يعتقد أنهــا لا زالت متفوقة.

ومنذ هذه الحملة وحتى اليوم والعرب يعيشون بإحساس المرارة والعجز نتيجة لقصورهم عن اللحاق بالآخر الغربى، ولم يستطع الخطاب الثقافى المدعوم بقوى ثقافية تقدمية إحراز أى تقدم نهضوى، بل استهلك هذا الخطاب نفسه فى آلية تكرار قضاياه، وأى متابع للخطاب الثقافى فى التسعينيات سيجد قضايا مثل تحرير المرأة والخلافة الإسلامية والعلم والدين يعاد تكرارها ربما بأسماء مغايرة ولكن من خلال تبنى مواقف بل وحجج وبراهين المرحلة الليبرالية ورموزها، وتمزق هذا الخطاب ما بين التفوق الغربى ثم مزيد من التفوق الغربى فى التسعينيات من القرن العشرين وحتى الآن بصفة خاصة، وإعادة تدوير قضاياه وعجزه عن تجاوزها، ثم قيامه بجلد الذات نتيجة لهذا الفصام والعجز وهى الحالة الذهنية التى انعكست بصورة آلية فى معالجة الصحافة المصرية لغزو العراق، فمع اختلاف طرق المعالجة وآلياتها إلا أن الصحافة بوصفها أداة تسجل ما يحدث بشكل يومى -كما كان يفعل الجبرتى- قد سادها فى الأغلب الأعم لغة أقل ما توصف به هو اللغة البكائية التى تستمد مرجعيتها بصورة مباشرة من خطاب هزيمة ١٩٦٧ وسنجد الصحافة تردد تعبيرات مثل النكبة وإزالة آثار العدوان.. إلخ.

والمستقبل الذى تبشر رياحه بأنه لن يكون فى صالح العرب سيتسم إذا استمرت هذه الحالة بإعادة خلق خطاب النكبة بكل أبعاده وتجلياته فى مجالات قد تبدو بعيدة عن التأثير السياسى المباشر، فكما يرى جاك دريدا إن قهرية التكرار لن تقوم إلا بإعادة خلق ما حدث بالفعل [٢٠٠]، فتكرار خطاب النكبة لن ينتج إلا نكبات جديدة.

شهدت حقبة التسعينيات من القرن العشرين نشأة ما بات يُعرف باسم النظام العالمى الجديد بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية للهيمنة على العالم، وخاصة دول الجنوب، ولقد كانت لهذه الهيمنة تجليات سياسية واقتصادية وثقافية هامة على العالم العربى.

حيث يبدو للمتابع لعلاقات الولايات المتحدة بالعالم العربى أن حقبة التسعينيات تميزت عما قبلها بوجود أمريكى سافر فى المنطقة على المستوى السياسى بوصفها الراعى الأساسى وربما الوحيد لمفاوضات السلام بين العرب والكيان الصهيونى والتى لم تصل إلى شيء ملموس حتى الآن.

أما على المستوى العسكرى فقد بدأت هذه الحقبة بتدخل مسلح من قبل الولايات المتحدة وحلفائها ضد العراق فى عام ١٩٩١. وبعد سنوات قليلة من انتهاء هذه الحقبة قامت الولايات المتحدة باحتلال قطر عربى بوزن العراق وتاريخه.

وصاحب هذا المد الاستعمارى الجديد ترويج لمفاهيم ثقافية عديدة مثل القرية الكونية وثورة الاتصالات وانفجار المعلومات ونهاية التاريخ وصدام الحضارات والشركات المتعدية الجنسية... إلخ فيما أطلق عليه ظاهرة العولمة بأبعادها المختلفة.

وعلى الرغم من كل هذا الجهد الدؤوب* لتشريح هذه الظاهرة فإنه لم يخرج في النهاية عن المواقف الفكرية الثلاثة المعروفة للفكر العربى الحديث والمعاصر تجاه الغرب منذ الحملة الفرنسية وحتى الآن، فهناك من يرفض العولمة بأبعادها المختلفة وهناك من يقبلها بإطلاق وهناك من يتحفظ عليها ويقوم بنقدها كما يرى السيد يسن (٢٠١) .

ويلاحظ أن سقوط الاتحاد السوفيتى وانفراد الولايات المتحدة بقيادة الرأسمالية العالمية ووجود خطابات قد تبدو متناقضة ظاهرياً فى أحيان كثيرة قد أوقع الخطاب الثقافى أحياناً فى التخبط وعدم رؤية الأمور بوضوح، فعلى سبيل المثال يلاحظ جلال أمين أن التيارات اليسارية تميل إلى اتخاذ مواقع يمينية من ظاهرة العولمة ومن الغرب بصفة عامة، على عكس التيارات اليمينية التى اتخذت مواقع منفتحة تجاه نفس الظاهرة (٢٠٢) .

ويرى الباحث أن هذا الخلط جاء نتيجة للمزج ما بين السياسى والثقافى فالاتجاهات اليسارية معروفة بعدائها للرأسمالية العالمية واتخاذ مواقف نقدية تجاهها، واتخاذها لمواقع منفتحة سابقة نتيجة لوجود المعسكر الاشتراكى ومعارضتها الحالية للغرب نتيجة لهيمنة الليبرالية الجديدة والثقافة الأمريكية والتى جاءت التوقعات اليسارية إزاءها صحيحة إلى درجة كبيرة، فالجنود الأمريكان تركوا المتحف الوطنى فى بغداد للسلب والنهب بعد سقوط بغداد مباشرة.

أما الاتجاهات الإسلامية فالمسألة تجاهها أعقد نتيجة لوجود خطابات معلنة تتفق أحياناً مع أمريكا وتختلف أحياناً ووجود وقائع فعلية تشير إلى تحالف هذه التيارات مع النظام الأمريكى.

فالتيار الإسلامى ما زال يؤكد على التناقض الثقافى الأساسى بين الإسلام والغرب، فعادل حسين يرى أن العولمة مؤامرة غربية أمريكية على الإسلام من خلال آليات عديدة (دعم القوى العلمانية، وحماية الأفراد المرتدين عن الإسلام، ودعم النظم الاقتصادية العلمانية المعادية للإسلام وجهود الكتاب والمستشرقين والإعلاميين والفنانين) (٢٠٣) .

وعلى المستوى الحركى جاء التقارب بين التيارات الإسلامية والولايات المتحدة أثناء حرب أفغانستان نتيجة لاعتقاد هذه التيارات أن التناقض الثقافى مع الغرب الصليبى أقل من التناقض الثقافى مع الغرب الملحد (الاتحاد السوفيتى) (٢٠٤) .

وهناك تحالف ما بين النظم العربية الرجعية والولايات المتحدة الأمريكية ربما يعود إلى ما قبل ثورة يوليو ١٩٥٢ وحتى الآن، وتحلل العديد من الأدبيات العلاقات الاقتصادية والسياسية المركبة بين التيارات الإسلامية ونظم شبه الجزيرة العربية والولايات المتحدة الأمريكية فيما أطلق عليه البعض البترودولار أو الإسلام الثروى النفطى [٢٠٥] .

والسؤال المطروح بقوة الآن هل انفصم هذا التحالف خلال الأحداث المتعاقبة فى فترة التسعينيات بدءًا بحرب الخليج الثانية ١٩٩١ وانتهاءً بسقوط بغداد فى أبريل ٢٠٠٣؟

ويبدو ظاهريًا أن هذا التحالف قد انتهى خاصة فى الشق الخاص بتحالف الولايات المتحدة مع الإسلام الحركى وتشهد العلاقات توترًا على مستوى التحالف بين الأولى والنظم العربية، ولكن يلاحظ أن فلسفة العولمة وسياقاتها المختلفة قد وضعت فى محك الاختبار مع أحداث ١١ سبتمبر والتى أكدت على عولمية الحدث عبر آليات العولمة الإعلامية من ناحية، وربط هذا الحدث بالواقع العربى من ناحية أخرى، والاستفادة من التناقض الثقافى بين الغرب والإسلام كما تزعم الولايات المتحدة من ناحية ثالثة، وهى العناصر الثلاثة التى تشابكت لتصنع دراما غزو الولايات المتحدة الأمريكية للعراق.

١١ سبتمبر جدل الداخل والخارج:

مع انتهاء الغزو العراقى للكويت، وما ترتب عليه من نتائج سياسية وثقافية شملت العالم العربى، وخاصة مع الصعود المتنامى للثقافة الأمريكية والتى حاولت التنظيم فكريًا لهيمنتها على العالم من خلال مقولتى نهاية التاريخ وصدام الحضارات، فيتم التنظير فى المقولة الأولى لانتصار المجتمع الرأسمالى الحر فى نهاية المطاف كخاتمة لصراع الأفكار والأيديولوجيات، وفى الثانية يتم التأكيد على تفوق الثقافة الغربية الرأسمالية واختزال الصراع القادم فى الصراعات الثقافية والدينية والعرقية، وقد لاحظ محمد عابد الجابرى أن صامويل هنتنجتون صاحب فرضية صدام الحضارات لا يستعمل الدين كمقياس للتمييز بين الحضارات إلا بالنسبة للإسلام وحده أما الحضارات الأخرى فهو ينسبها إلى شيء آخر غير الدين [٢٠٦] .

تتقاطع فرضية هنتنجتون مع تيار ما بعد الحداثة والذى يعتبره الكثيرون الوجه الثقافى والفلسفى للعولمة وهو تيار يركز على فكرة موت الأفكار الكبرى والأيديولوجيات الشمولية ومن داخل هذا التيار تبرز النزعتان الثقافية والنسبية.

وتؤكد النزعة النسبية فى العلوم الاجتماعية على دراسة (علوم أصل السلالات البشرية وتطور أعرافها وعاداتها ومعتقداتها، كما تؤكد على دراسة الثقافات التى يستحيل وضع قاعدة قياسية موحدة لها) (٢٠٧) .

أما النزعة الثقافية فهى (تغلب التفسير الثقافى للظواهر الاجتماعية على غيره من التفاسير- اقتصادى- سياسى أو غيره) (٢٠٨) .

وهى نظريات مناهضة للمدرسة التطورية في علم الاجتماع والتى كانت تفترض أن (المجتمعات الإنسانية تتطور بطريقة متتابعة وذاتية النمو وفقاً لقانون للتغير شامل ومتماثل يؤدى بها بالضرورة نحو نفس الإنجاز) (٢٠٩) .

ويقدم برتران بادى دراسة تتقاطع مع هذا الاتجاه، فبعد مقارنة بين العالم المسيحى والذى شهد صراعاً فى العصور الوسطى بين الكنيسة والدولة، هذا الصراع الذى جعل لكل كيان منهما -الكنيسة والدولة- منظومة فكرية مستقلة سمحت بعد ذلك بقبول الغرب لفكرة فصل الدين عن الدولة، وهى فكرة بخلاف تأسيسها على وجود فاصل بين الكنيسة والدولة فى العالم الغربى، فإن لها مرجعية فى المسيحية "أعط ما لله لله وما لقيصر لقيصر"، يقارن المؤلف هذه الأوضاع بنظام الحكم فى الإسلام ليخلص إلى النتيجة التالية (إن عدم الانقسام بين الحيزين الدينى والسياسى فى العالم الإسلامى يجعل نموذج التطور الغربى متعارضاً بعنف مع النموذج السائد فى العالم الإسلامى) (٢١٠) .

ونجد هذا الاتجاه بوضوح فى كتاب آخر صدر أثناء أحداث ١١ سبتمبر لبرنارد لويس، فبعد مقارنة شبه مماثلة لنظامى الحكم فى الثقافتين المسيحية والإسلامية يصل لويس لنتيجة تبدو مقاربة للنتيجة الأولى (ولما كانت الدولة الاسلامية أداة للإسلام، بل وأنشأها مؤسسها بهذه الصفة، لم تكن هناك حاجة إلى أى مؤسسة دينية منفصلة، فالدولة هى الكنيسة والكنيسة هى الدولة، والله على رأس الاثنتين والنبى ممثله على الأرض) (٢١١) .

ويعلق رؤوف عباس فى تقديمه للكتاب السابق بأن برنارد لويس قد استدعى إلى واشنطن ست مرات منذ حادث البرجين (٢١٢)، ويعدد رؤوف عباس بعد ذلك ملامح الضجة التى أثارها الكتاب فى الصحافة الغربية وعلى شبكات التليفزيون وعبر الإنترنت، فالكتاب جاء فى توقيت فارق بالنسبة للعلاقات الإسلامية الغربية ومن خلال أشهر مستشرق فى الغرب عامة وفى المجال الأكاديمى الأنجلو- أمريكى خاصة (٢١٣).

وبعيداً عن مجال نظام الحكم السياسى يفتتح لويس الفصل الثالث المعنون بالحواجز الاجتماعية والثقافية بتأكيد التمايز المطلق بين العالمين الغربى والإسلامى (ولكن المجتمع الغربى كان يختلف

اختلافات أخرى عن المجتمع الإسلامى، وهى اختلافات أكبر وأعمق وإن ظل الناس يتجاهلونها زمناً طويلاً لسبب ما) (٢١٤) وعلى طول هذا الفصل والفصول التالية يعدد لويس هذه الاختلافات الجوهرية العميقة مثل نظرة العالمين إلى المرأة ووضع الكفار فى العالم الإسلامى والرقيق والاهتمام بالعلم وتذوق الموسيقى وتقدير قيمة الوقت.... إلخ، وهى صورة وإن كانت تجافى الواقع فالكتاب ينتهى وإن بإشارات قليلة إلى منتصف القرن العشرين فإنها تشطح أحياناً فى خيالات الاستشراق التقليدى، فالمسلم حتى الآن لا يهتم بالوقت إلا لمعرفة مواقيت الصلاة (٢١٥) والمسلم لا يرتدى القبعة لأنها تعيقه عن الصلاة بحوافها العريضة، وتوحى رابطة العنق بالنسبة للمسلم بالصليب (٢١٦) .

ومشكلة العالم الإسلامى الأساسية تكمن فى غياب الحرية، وبعد أن يغلق الباب فى وجه المسلمين إزاء تبنى الحرية الغربية يبشرهم بأنهم إذا لم يأخذوا بالنمط الثقافى الغربى فسوف يتعرضون للاستعمار مرة أخرى، والغريب أنه يعدد أنواع القوى القادرة على استعمار الشرق الأوسط مرة أخرى، ولا يذكر من بينها الولايات المتحدة الأمريكية (٢١٧) .

ويلاحظ أن هذه الرؤية تركز على كل ما هو ثقافى دون الالتفاف إلى دراسة أو الإشارة إلى البنى الاقتصادية والاجتماعية للعالم الإسلامى، ومن داخل منظورها الثقافى تقدم عالماً شرقياً يتسم بالسحر والتخلف فى آن واحد إذ هى تقفز على التيارات العقلانية فى التراث أو الحركات الإصلاحية فى العصر الحديث، بالإضافة إلى عدم إشارتها إلى التدخل الغربى المستمر لإجهاض محاولات التحديث الذاتية فى العالمين الغربى والإسلامى.

ورؤية لويس ومن قبله برتران بادى تدخل العالم الإسلامى فى حتمية ثقافية لا فكاك منها فالمسألة أصبحت لا تقتصر على نظم سياسية تواجه العالم العربى والإسلامى صعوبة فى تحقيقها نتيجة لظروف اجتماعية واقتصادية وسياسية وخارجية متعددة، بل يمتد إلى المفهوم الثقافى بالمعنى الأشمل فهناك تمايزات روحية تقتصر على العالم الغربى وتشكل نظرة الإنسان الغربى تجاه الكون بمفرداته المختلفة وهى خصائص لا نجدها عند الإنسان المسلم بناءً على ثقافته الإسلامية فقط.

وكنتيجة سياسية بحتة لابد من التدخل الغربى الأمريكى حتى ولو بالأسلوب العسكرى لتمدين هؤلاء "البرابرة" نتيجة لعدم قبولهم الحداثة بالطرق السلمية، وهى المهمة التى قام بها مثقفون عرب يقومون بخدمة السياسة الأمريكية كما يرصد "حسن نافعة" فى تعليقه على أفكار فؤاد عجمى (٢١٨) (بعبارة أخرى يرى عجمى أن أحداث الحادى عشر من سبتمبر كشفت ضمن ما كشفت عن وجود مشكلة ثقافية كبرى فى العالم العربى ككل لا سبيل لمعالجتها من جذورها إلا بعملية تحديث كبرى لن تتم إلا بضغط هائل من الخارج وضرب العراق يتيح الفرصة لبدء هذه العملية الكبرى) (٢١٩) .

ولا تقوم رؤية النسبية الثقافية –الحتمية الثقافيه- على خدمة الأهداف السياسية الأمريكية فقط ولكنها تتقاطع مع الإعلام المعولم، حيث تقدم صورة هوليودية للمسلمين تتفق كثيراً مع رؤية برنارد لويس، فالمسلم رجل متجهم يحتقر المرأة ويرتدى السروال ويركب الناقة ويعيش حياة متخلفة، وامتزجت هذه الرؤية بالواقع الأفغانى القروسطى لتدعم الصورة المعولمة عن المسلمين، فطالبان يمنعون تعليم المرأة ويحطمون تماثيل بوذا ولا زالوا يتعلمون فى الكتاتيب ويفتقدون لأى بنية تحديثية أساسية وهى صورة قدمها ببراعة لويس فى كتابه، وعلى المستوى الفكرى تتفق أفكار لويس إلى حد كبير مع التيارات الإسلامية من أقصاها إلى أقصاها.

١-**الرؤية الإسلامية المعتدلة:** تتفق الرؤية الإسلامية التى صاغها من وصفوا بالإسلاميين المعتدلين مع رؤية برتران بادى وبرنارد لويس فى تمايز نظام الحكم فى العالمين الإسلامى والغربى بناءً على أسس ثقافية بحتة.

فيرى فهمى هويدى أن العلمانية تتناسب مع المسيحية على أساس أن الدين المسيحى لا يحتوى على كم التشريع القانونى والفقهى الموجود فى الإسلام [٢٢٠] فالإسلام كحكم لم يعرف الفصل بين الدين والسياسة، وتمتلىء الرؤية الإسلامية المعتدلة برفض العلمانية وما يندرج تحتها من مفاهيم مثل التنوير ومن حملوا مشاعله فى بلادنا، فطارق البشرى يصف التيار الذى قاد لواء ثورة ١٩١٩ وما بعدها بالتيار (الوطنى العلمانى المتغرب) [٢٢١] .

أما جلال أمين فيرى أن تيار التنوير العربى كالغربى تماماً معاد للدين وأن طه حسين قد افتعل قضية للسخرية من الدين فى قضية الشعر الجاهلى [٢٢٢]، وأن جيل طه حسين قد (فتح الباب لكى تدخل إلينا رياح التغريب كاملة حتى كادت أن تقتلع كل شىء) [٢٢٣] .

أما محمد سليم العوا فبعد دفاع طويل عن حق نصر أبو زيد فى التعبير عن آرائه يدعوه إلى النزول على حكم المحكمة والرجوع عن أفكاره [٢٢٤] بما يعنى ضمناً اعترافه بالردة.

والموقف من نظام الحكم والتنوير والعلمنة يفتح الباب واسعاً أمام موقف هؤلاء من تطبيق الشريعة الإسلامية والتى لابد أن ينطلق الدستور من مبادئها [٢٢٥] والتعددية الحزبية والتى يروجون لها كثيراً مع نقدها بصورة مكثفة والدعوة إلى تكوين حزب سياسى إسلامى [٢٢٦]، والموقف من حرية التعبير، ويمتلىء كتاب فهمى هويدى المفترون برفض معظم الاجتهادات التراثية المعاصرة بدءًا من طه حسين وعلى عبد الرازق وانتهاءً بنصر أبو زيد مروراً بسعيد العشماوى بل لا يخطىء الباحث إذا افترض تحريض الكتاب ضد سعيد العشماوى فهو يضع اسمه الأول محمد بين مزدوجتين

"محمد" ويتابع فهمى هويدى (والمفاجاة انه مصرى رمسلم) [٢٢٧] وتشير هذه الاراء وغيرها الكثير مما تحتويه هذه الكتابات* إلى التأزم السياسى والثقافى الذى تعيشه مصر والعالم العربى تجاه مشروع الحداثة بالإضافة إلى صياغة رؤية توصف بالاعتدال وتتسم بالانتشار والقبول والاحترام فى الأوساط الثقافية فى العالم العربى وفى ظروف الضغط الغربى المتكرر لإفشال جهود التحديث الذاتية ووقوع العالم العربى فى براثن الاستعمار تصبح لهذه الرؤية مشروعيتها بغض النظر عن وضع مشروع الحداثة على محك الاختبار الحقيقى أم لا، بالإضافة إلى أن هذه الرؤية تتشابه إن لم تتفق مع النتائج النهائية لرؤية لويس على المستوى السياسى.

٢-الرؤية الإسلامية المتطرفة: إذا كانت الرؤية الإسلامية المعتدلة تتفق مع أطروحة لويس فى شقها السياسى، فإن الرؤية الإسلامية المتطرفة تتماهى مع رؤية لويس الثقافية الأشمل بالنسبة للموقف من المرأة والفنون والعلوم وأهل الذمة.. إلخ، وسيكون من قبيل التكرار رصد منطلقات هذه الرؤية من فكرة تجهيل المجتمع والتى صاغها سيد قطب فى كتابه معالم فى الطريق، حيث الحياة لا تعرف إلا نظامين النظام الإسلامى أو المجتمع الإسلامى والمجتمع الجاهلى [٢٢٨] * ، (فالمجتمع الإسلامى هو المجتمع الذى يطبق فيه الإسلام عقيدة وعبادة وشريعة نظاماً وخلقاً وسلوكاً، والمجتمع الجاهلى هو المجتمع الذى لا يطبق فيه الإسلام ولا تحكمه عقيدته وتصوراته وقيمه وموازينه ونظامه وشرائعه وخلقه وسلوكه) [٢٢٩] أما محمد قطب فيرى أن الغرب تاريخياً وبدءًا من المرحلة اليونانية وحتى الآن يعيش فى جاهلية تقوم على تقديس العقل على حساب الروح، وهى جاهلية تؤسس على المادة والحواس والنظم الإدارية والمدنية والحربية [٢٣٠] والعلمانية هى اللادينية ونشأت نتيجة للصراع بين الدولة والكنيسة ولم يحدث هذا فى الإسلام [٢٣١] .

ويناقش كتاب جاهلية القرن العشرين على طول فصوله فساد التصور الغربى فى السياسة والاقتصاد والاجتماع والأخلاق والجنس والفن.

وهذه الرؤية هى التى دشنت لأفكار الجماعات الإسلامية الحركية فى السبعينيات وحتى الآن بحثًا عن إسلام نقى لا تشوبه شائبة دون توسط حتى الفقهاء السنة الأربعة المعتمدون [٢٣٢] .

واستطاعت هذه الرؤية نتيجة لتحالفها مع السلطة المصرية فى مرحلة السبعينيات وتحت تأثير المرحلة النفطية الخليجية أن تنتشر بين العديد من شرائح المجتمع المصرى وتخلق مرحلة من التأزم العنيف بينها وبين السلطة من ناحية، وبينها وبين الشرائح الحداثية والمثقفة من ناحية أخرى واستطاعت رؤية هذه الجماعات أن تغزو الساحة عبر أربعة محاور:

١-السلطة:-شهدت علاقة السلطة فى مصر بهذه الجماعات حالات من المد والجزر بدءًا من استخدام السادات لهذه الجماعات لضرب الحركة اليسارية والناصرية فى بداية السبعينيات (٢٣٣) وانتهاءً بسلسلة الحلقات التى تنشرها جريدة القاهرة التابعة لوزارة الثقافة المصرية وتعلن فيها قيادة هذه الجماعات العدول عن كثير من أفكارها (٢٣٤).

وشهدت العلاقة في معظم هذه الفترة موجات من العنف والعنف المضاد. وفى مرحلة التسعينيات وحدها شهدت مصر حالات عنف تمثلت فى اغتيال فرج فودة فى عام ١٩٩٢ ومحاولة اغتيال نجيب محفوظ فى عام ١٩٩٥ ثم تزايد العنف بصورة لم يسبق لها مثيل فى مذبحة الأقصر فى عام ١٩٩٨، بالإضافة إلى أحداث العنف التى استهدفت السياحة وكبار المسئولين. وقد واجهت السلطة هذه الأحداث عبر المواجهة الأمنية غالباً ثم المواجهة الإعلامية والتى قامت على الفصل بين الإسلام وما تفعله هذه الجماعات والتركيز على مقولة سماحة الإسلام واستنارته فى مقابل تفسيرات هذه الجماعات الضالة والمنحرفة (٢٣٥) ، ثم اتبعت السلطة أسلوب الاتصالات السرية مع مختلف قادة الفصائل الإسلامية الراديكالية فى السجون لوقف موجات العنف (٢٣٦) والدخول مع هذه الجماعات فى مفاوضات تسعى إلى تقديم حلول وسط مثل إنشاء أحزاب إسلامية (٢٣٧)، بالإضافة إلى هذه الأساليب اتبعت الدولة أحياناً أسلوب المواجهة الفكرية من خلال تبنى مشاريع ثقافية لإحياء العديد من كتابات عصر النهضة والمرحلة الليبرالية* .

هذه العلاقة التى تقوم على المد والجزر والمواجهة الضيقة أحياناً وتقديم التنازلات أحياناً سادت أجهزة الدولة فترفض جامعة القاهرة ترقية نصر أبو زيد ١٩٩٣/٣/١٨ إلى درجة أستاذ بقسم اللغة العربية بكلية الآداب، وفى ١٩٩٥/٦/١٤ صدر حكم محكمة استئناف القاهرة دائرة الأحوال الشخصية بالتفريق بين نصر أبو زيد وزوجته (٢٣٨)، هذا بالإضافة إلى قضايا الحسبة التى قامت لتكفر مفكرين بعينهم أمام محاكم مدنية حداثية مثل سيد القمنى وحسن حنفى وامتلأت هذه الفترة بحالات مصادرة الكتب والتى تركتها السلطة المدنية إلى سلطة مدنية أخرى متسربلة بأفكار العصور الوسطى وهى لجنة البحوث والتأليف التابعة للأزهر (وفى السنوات الأخيرة بدأ الأزهر دون الدولة يمارس سلطة رقابية على المطبوعات فى كل ما يتعلق بشأن الدين) (٢٣٩).

ولم تقتصر قضايا المصادرة والتكفير على المفكرين فقط بل امتدت للفنانين مثل يسرا وعادل إمام ويوسف شاهين.. إلخ.

ويمتد الفصام إلى وزارة الثقافة التى وقفت مع رواية وليمة لأعشاب البحر لمؤلفها السورى حيدر حيدر فى عام ٢٠٠٠ ثم وقوف نفس الوزارة ضد روايات ثلاث أخرى وهى "قبل وبعد" لتوفيق

عبد الرحمن و"أبناء الخطأ الرومانسى" لياسر شعبان و"أحلام محرمة" لمحمود حامد [٢٤٠]، وبعيداً عن لعبة التوازنات السياسية تشير هذه الحالة إلى فصام عنيف فى الهوية كما لاحظ أحد الباحثين ليعود السؤال الأزلى مرة أخرى (من أنا وبصراحة يراها البعض مستفزة: هل أنا ما تقول به المؤسسة الدينية ممثلة فى الأزهر الشريف، أم ما تقوله السلطة المدنية ممثلة فى بيان لجنة وزارة الثقافة؟ هل مدخلاتى مقصورة على كل التراث الدينى الذى شربته وتعلمته عبر السنين أم كل ما تعلمته أثناء احتكاكى فى الداخل والخارج بفكر "الآخر" الثقافى المختلف) [٢٤١] .

إذن شهدت السلطة بمؤسساتها المختلفة حالة من التوازنات السياسية مع فكر وحركية جماعات الإسلام السياسى، أثرت فى التحليل الثقافى الأخير على هوية الدولة ومدى انتمائها وتأكيدها على قيم الحداثة.

٢-المؤسسة الدينية: وتشمل الأزهر ودار الإفتاء، وعلى الرغم من تبعية هذه المؤسسات إلى الدولة نتيجة للعديد من الإجراءات التى اتخذها عبد الناصر [٢٤٢] وجعلت المؤسسات الدينية كالأزهر ودار الإفتاء والأوقاف تابعة للدولة فإن وجود هذه المؤسسات بصفتها الدينية يجعل لها طبيعة خاصة، حيث تقوم بدراسة العلوم الدينية وتقديم الفتوى فى الشأن الدينى بصورة دينية اجتهادية يفترض فيها الاستقلال، ولكن المؤسسة الدينية خضعت للعلاقة المتقلبة بين الدولة وجماعات الإسلام السياسى خلال حقبة التسعينيات وذلك عبر العديد من القضايا، فقد اعتبر الشيخ جاد الحق على جاد الحق فوائد البنوك من الربا المحرم شرعاً وقدم مفتى الجمهورية محمد سيد طنطاوى آنذاك فتوى معارضة لرؤية جاد الحق شيخ الأزهر تقوم على النظر إلى فوائد البنوك بنظرة عصرية بعيداً عن لغة الحلال والحرام، فيما يمثل توازناً بين الدولة (سيد طنطاوى ودار الافتاء) والتطرف الدينى (جاد الحق والأزهر) [٢٤٣].

وخضع خطاب الأزهر بعد تولية محمد سيد طنطاوى لخط السلطة تماماً ويلاحظ الباحث أن خطابه هو إعادة إنتاج لخطاب السلطة، وحدث ذلك أثناء الانتفاضة الفلسطينية حينما اعتبر الفلسطينى الذى يفجر نفسه شهيداً مرة وبعد فترة وحسب توجهات خطاب السلطة يعتبر نفس الشهيد إرهابياً وتكرر نفس الشيء فى غزو الولايات المتحدة للعراق.

٣-المجتمع: شهد المجتمع المصرى منذ السبعينيات وحتى الآن حالة من التدين التى توصف غالباً بالتدين الشكلى وتتمثل فى العديد من المظاهر اليومية المتكررة مثل انتشار نقاب المرأة وتربية اللحية والجلبات القصير وتوقف العمل فى وقت الصلاة ورفع أذان الصلاة عبر مكبرات الصوت...

إلخ بالإضافة إلى انتشار هذا الفكر عبر كتب زهيدة السعر وشرائط كاسيت صوتية [٢٤٤] وهى أوضاع نتجت عن ثقافة ازدهرت خلال الحقبة النفطية (١٩٧٤-١٩٨٥) [٢٤٥].

ولعبت الجماعات الدينية دورًا هامًا لاستقطاب الشرائح الدنيا فى المجتمع من خلال الخدمات الاجتماعية مثل المراكز العلاجية والتعليمية الملحقة بالمساجد الأهلية والتى ظلت تقوم بنفس الدور حتى بعد انضمامها لوزارة الأوقاف، ولعبت المؤسسة الدينية الرسمية دورًا هاماً فى سيادة الذهنية الما قبل حداثية والتى تسود المجتمع الآن، فمقررات الأزهر فى المرحلة الثانوية مثلاً ما زالت تتحدث عن فقه الرق والغُسل والحيض وأحكام أهل الكتاب ربما بنفس الأحكام والتعبيرات القديمة [٢٤٦] .

والمتابع للخطاب الإعلامى بشقيه المقروء والمسموع يلاحظ كم القضايا التى تناقش الغناء والموسيقى وحجاب المرأة.

وتؤكد عينة من الأسئلة التى وجهها المواطنون إلى لجنة الفتوى بالأزهر خلال عام ١٩٩٦ على الحالة الذهنية التى نعيشها حالياً، فهناك سؤال يدور حول المجذوم وهل يجوز الفرار منه؟ وتؤكد الإجابة أنه يجب الفرار من المجذوم، وسؤال عن حكم الدين فى وجود كلب للحراسة بالمنزل؟ والإجابة ترفض وجود كلب لأن الملائكة لا تدخل بيتاً به كلب، وسؤال عن الجن وهل يموتون فى الدنيا ويغسلون ويدفنون مثل الإنسان والإجابة تقول "الظاهر أنهم يعاملون كما يعامل الإنسان ولا ندرى ذلك لعدم وجود نص" [٢٤٧] .

٤-المثقفون: لم تشغل الجماعة الثقافية الحداثية المصرية والعربية بقضية ما كما شغلت بقضية التطرف الدينى فى حقبة التسعينيات، ويحتاج هذا الموضوع إلى دراسة أخرى. ولكن يلاحظ أن الجماعة الثقافية المصرية والعربية عالجت هذه القضية من منطلقين:

أ-البحث عن الحداثة الغربية فى التراث الإسلامى عبر العديد من المشاريع التراثية المعاصرة مثل أعمال حسن حنفى ومحمود إسماعيل وأدونيس ومحمد عابد الجابرى وسيد القمنى ونصر أبو زيد... إلخ وهى أعمال تؤكد على تيارات عقلانية وعلمية فى التراث مثل المعتزلة وابن رشد وابن خلدون على سبيل المثال. وقد واجه التيار الإسلامى هذه الاتجاهات بالرفض أحياناً وبالتكفير فى أحيان أخرى، وانجذب المثقف الحداثى إلى ساحة التيار الإسلامى ليدافع عن نفسه ويؤكد على إسلامه من خلال استخدام كافة الحجج الفقهية التقليدية والتى سعت هذه الأعمال إلى الخلاص منها أو نقدها.

ب-المواجهة المباشرة مع التيار الإسلامى على أرضية التراث، عبر العديد من الأدبيات التى واجهت هذا الفكر بصورة مباشرة والتأكيد على تطرفه وخروجه من الإسلام، أو إعادة قضايا العهد الليبرالى وتكرارها مرة أخرى مثل حجاب المرأة (سعيد العشماوى "حجاب المرأة"- جمال البنا "الحجاب" وربما بنفس الأسماء القديمة إقبال بركة "تحرير المرأة" والخلافة الإسلامية تكراراً لعلى عبد الرازق الإسلام وأصول الحكم فنجد سعيد العشماوى "الخلافة الإسلامية" وسليمان فياض "الوجه الآخر للخلافة الإسلامية".... إلخ.

وتنازل المثقف عن حرية التعبير بوصفها قيمة حداثية أساسية وتورط فى تكفير الاتجاهات الإسلامية وإخراجها من الملة، فيستخدم رفعت السعيد مصطلح التأسلم للتعبير عن هذه الاتجاهات المتطرفة، وهو مصطلح يعبر صاحبه عن نسبة هذه التيارات إلى الاسلام كما ينسب من يمارس مفردات الثقافة الأمريكية إلى التأمرك [٢٤٨]، وتكرر نفس الوضع أثناء دفاع التيارات الحداثية والليبرالية عن رواية وليمة لأعشاب البحر ضد محمد عباس إذ شكك العديد من الآراء فى صحة إسلام محمد عباس ودعت إلى إغلاق جريدة الشعب مما جعل البعض يطلق عليهم تعبير كهنة الاستنارة [٢٤٩] .

إذن استطاع ضغط الاتجاهات الإسلامية أن يؤدى إلى تراجع الدولة الحداثية خطوات إلى الوراء وهو ما لم تشهده مصر فى المرحلة الليبرالية أو المرحلة القومية الناصرية، وتراجع المثقف الحداثى إلى التراث جعله يحاور الخصم بنفس أسلحته وحججه وبراهينه مما جعل المشروع الحداثى النهضوى الذى بدأ مع محمد على يقف ساكناً فى لحظته التاريخية إن لم يتراجع إلى الوراء، وسيطرت هذه الاتجاهات على المجتمع أعطت صورة سلبية عن المسلم الذى ما زال يعيش الماضى بكل تفاصيله، وتتفق الصورة الثقافية -بعيداً عن الخلفيات الاقتصادية والاجتماعية- فى كثير من أبعادها مع صورة برنارد لويس، فالمسلم حتى الآن ما زال ينظر بدونية إلى المرأة وهناك من يناقش وضعية المرأة وحقوقها وأهل الذمة والرقيق، وهناك مسافات واسعة على المسلم قطعها حتى يستطيع تقبل العلم الحديث وتذوق الموسيقى وتقدير قيمة الوقت... إلخ. وتتقاطع الصورة بحذافيرها مع الوضع الأفغانى الرجعى ومع الوضع المصرى والعربى والذى يعانى من أزمة حداثية عميقة تقبع خلف كل شكليات الحداثة الموجودة فى المجتمع، وتمتزج هذه الصورة مع رؤية الأفلام الهوليودية لتقدم صورة عولمية للإسلام والمسلمين تؤكدها أحداث ١١ سبتمبر ونسبتها إلى أسامة بن لادن وتنظيم القاعدة، ويبحث أمثال برنارد لويس عن جذورها التاريخية، ولم يمتلك العالم العربى من المقومات الحداثية والحضارية ما يجعله يفكر قبل أن يصنع إعلامه من حدث ١١ سبتمبر حدثاً كونياً

عابرًا للقارات كما فكرت الصين ولكنها ترددت نتيجة لوجود أقلية إسلامية بها دخلت في حسبة التوازنات السياسية (٢٥٠).

واستطاعت الليبرالية الجديدة أن تتسلل إلى العالم العربي والذى لم يكمل مشروعه الحداثى بعد لتستغل أزماته الداخلية وانشطاراته المذهبية الفكرية لتواجه أصولية ما قبل حداثية ما زالت تعيش فى تراثها بأصولية أمريكية ما بعد حداثية لا يهمها إلا الربح الاقتصادى (٢٥١) عبر التأكيد على التمايزات الثقافية.

وسيتحول حدث ١١ سبتمبر إلى حدث كونى يؤرخ له فى النظام الثقافى العربى كهزيمة ١٩٦٧ ويناقش جميع إشكالياتنا الثقافية من خلاله (٢٥٢) .

وقبل أن يلتقط العرب أنفاسهم يقع غزو العراق فى عام ٢٠٠٣ وسيفرز هذا الحدث خطابات إعلامية وثقافية مؤيدة لخطاب السلطة المتقلب، وسيناقش البعض هذا الحدث على محك المشروع النهضوى العربى، وسيتعامل معه آخرون من منطلق تراثى... إلخ.

وسيعود جدل الداخل والخارج الثقافى مرة أخرى بعد انتهاء الحدث، ففى أول رد فعل للجماعة الثقافية العربية سيعقد مؤتمر حول تجديد الخطاب الدينى، يعاد من خلاله إنتاج إشكاليات الحداثة والنهضة والعلاقة بالغرب مرة أخرى والجدال مع العولمة الليبرالية على البعد الثقافى فقط مع إهدار البعد الاجتماعى الاقتصادى والذى لن تحدث أية نهضة حداثية مرجوة فى العالم العربى بدون تغيرات اقتصادية واجتماعية جوهرية.

الحملة الأمريكية والحملة الفرنسية هل من أوجه تطابق بينهما؟

فى الفترة من ١١ سبتمبر ٢٠٠١ وحتى بداية الحملة الأمريكية على العراق فى ٢٠ مارس ٢٠٠٣، انتشر فى الولايات المتحدة الاهتمام بدراسة الإسلام، فبالإضافة إلى كتاب برنارد لويس أين الخطأ؟ أصبح هناك أربعة كتب عن الإسلام ضمن الكتب العشرة الأكثر مبيعاً فى الولايات المتحدة خلال هذه الفترة على قائمة موقع أمازون عن الإسلام، واتجه ٢٣% من مرتادى الإنترنت الأمريكيين إلى مصادر الشبكة المختلفة للحصول على مزيد من المعلومات عن الإسلام (٢٥٣)، (وفى الجامعات تزايد الاهتمام بدراسة الثقافة العربية ولأول مرة فى التاريخ الأمريكى يصبح الإسلام والعالم العربى جزءًا مطلوبًا فى منهج الجامعات والمدارس الثانوية فى أنحاء البلاد) (٢٥٤).

ولعل وجه التشابه الأول بين الحملتين الفرنسية والأمريكية، يتمثل فى الدراسة الثقافية للمنطقة العربية قبل غزوها، فلقد سبقت الحملة الفرنسية مئات الدراسات الاستشراقية* عن الحضارة

الإسلامية والمجتمع الإسلامى، وعلى الرغم من أن الدراسات الثقافية فى هذا المجال قد سبقت هاتين الحملتين، ولم يكن الهدف منها هو التمهيد للاستعمار فإن هذه الدراسات فى جوانب كثيرة منها كانت ذخيرة جيدة ليتعرف المستعمر على طبيعة المجتمعات التى سيقوم بغزوها، مما جعل أحد الباحثين يحكم على الاستشراق بأنه مقدمة الاستعمار [٢٥٥].

ويلاحظ أن الحملة الفرنسية قد جاءت إلى مصر نتيجة لتحول فرنسا إلى نمط إمبراطورى وهى نفس الظروف التى تعيشها الولايات المتحدة الأمريكية حالياً بعد سقوط المعسكر الاشتراكى وتحولها إلى نمط امبراطورى كوزموبوليتانى، وإن تميزت الأخيرة بأنها أول إمبراطورية يتفق لها أن تحقق مكان الصدارة فى الميدان الاقتصادى والعسكرى والتكنولوجى والثقافى لأول مرة فى التاريخ [٢٥٦].

وإذا كانت الحملة الفرنسية مُحملة ولو ظاهرياً بالثورة الفرنسية وبمبادئها عن الحرية والإخاء والمساواة فإن الحملة الأمريكية بدأت نتيجة لأحداث الحادى عشر من سبتمبر، وبعد ما تعاطفت أوروبا مع الثورة الفرنسية ومبادئها واعتنقها العديد من المثقفين ثم قاموا برفض التوسع الإمبراطورى الذى قام به نابليون بعد ذلك [٢٥٧]، فإن نفس الموقف تعرضت له أمريكا بعد تعاطف العالم كله مع ضحايا ١١ سبتمبر، فالعديد من الساسة والمثقفين والشعوب وقفوا ضد الإجراءات التى اتخذتها الولايات المتحدة بعد ذلك كالحرب على أفغانستان والعراق واحتلالهما.

تأتى بعد ذلك الخطابات المعلنة للغازى، فالخطاب الفرنسى قد أعلن أن الحملة ما جاءت إلى مصر إلا لتحريرها من زمرة المماليك لأن فرنسا دولة تقوم على الحرية والمساواة أو بتعبير الجبرتى (من طرف الفرنساوية المبنى على أساس الحرية والتسوية) [٢٥٨]، وربما تتناص مصطلحات مثل ديكتاتور العراق مع مصطلحات مثل الظلم والطمع المملوكى التى وردت فى منشور نابليون الذى وجهه إلى المصريين غداة الحملة، أما وقوف صدام ضد المصالح الأمريكية فهو تكرار لوقوف المماليك ضد التجار الفرنساوية (إنه من زمان مديد الصناجق الذين يتسلطون فى البلاد المصرية، يتعاملون بالذل والاحتقار فى حق الأمة الفرنساوية ويظلمون تجارها بأنواع الإيذاء والتعدى) [٢٥٩] والهدف أن يحكم المصريون أنفسهم [٢٦٠] كما هو هدف الحملة الأمريكية المعلن، ولكن إذا كانت الحملة الفرنسية بالفعل تحدثت إلى المصريين على أساس أنهم أمة يحكمها مغتصب أجنبى (المماليك) فإن الوعى القومى الذى سيتنامى بعد ذلك سيجعل المصريين بقيادة مشايخ الأزهر يعزلون مندوب السلطان العثمانى فى مصر ويولون محمد على "الأجنبى" هو الآخر ولكن وفق شروطهم فى خطوة غير مكتملة للإحساس القومى الذى لم يتخلص نهائياً من الرابطة الدينية [٢٦١]، فإن الحملة الأمريكية

جاءت إلى العراق حيث منطقة التشظى الثقافى فأزاحت الديكتاتور وزرعت التفتت القومى والمذهبى والثقافى".

وإذا كانت الحملة الفرنسية نجحت فى إقامة سلطة متعاونة معها "الديوان العام" فإن أمريكا نجحت فى إقامة مجلس الحكم الانتقالى، والقارىء لتاريخ الجبرتى لا يجد هذا الكم من التشكيك والرفض والتخوين الذى يواجه مجلس الحكم الانتقالى الموجود حالياً فى العراق، ربما يعود ذلك إلى شخصيات العلماء التى تشكل منها هذا الديوان وحملها للواء الحركة الوطنية قبل وأثناء وبعد الحملة الفرنسية على عكس مجلس الحكم الانتقالى والذى جاء تشكيله من شخصيات يتشكك فيها المواطن العربى والعراقى قبل وأثناء تشكيل هذا المجلس.

وفى أول رد فعل على معرفة أمراء المماليك بوصول الحملة إلى مصر زعموا (أنه إذا جاءت جميع الإفرنج لا يقفون فى مقابلتهم و(أنهم يدوسونهم بخيولهم) [٢٦٢]، وفى أول رد فعل للعسكرية العراقية زعم الصحاف وزير الإعلام العراقى نفس الزعم ودائماً ما كان يصف الأمريكيين "بالعلوج"، هل يمكن مطابقة الموقفين؟ مصر الواقعة تحت ظلمات الفترة العثمانية – المملوكية التى لا تعلم شيئاً عن العالم الخارجى والنهضة الأوروبية وفى ذهن أمرائها الحملات الصليبية التى كانت تتكسر بسهولة ودائماً أمامهم، بموقف الصحاف الذى يعلم أنه يكذب فى عصر السماوات المفتوحة.

وهل يمكن مقارنة هرب السلطة العراقية بهرب أمراء المماليك لصعيد مصر وقيادة المقاومة هناك.

وهل يمكن مقارنة دراسة علماء الحملة لمصر وآثارها وكتابة وصف مصر وفك رموز الكتابة الهيروغليفية بعد ذلك بقيام القوات الأمريكية بنهب وسلب آثار العراق [٢٦٣] .

ولا يمكن أبداً مقارنة بوش بنابليون [٢٦٤]، فمهما كانت الأسباب الاستعمارية الحقيقية لنابليون فإن خطابه كان يحترم الإسلام وباستثناء دخوله هو وجنوده الأزهر لم تقم الحملة بأشياء أو بإفراز خطابات مناهضة للإسلام، أما خطاب بوش فهو محمل بطابع دينى واضح يخص المطامع الاستعمارية هو الآخر، ولكن هذا الخطاب يفتح فضاءات لا نهائية أمام صراع وتطاحن الأصوليات وازدهارها [٢٦٥] .

ولا يمكن كذلك مقارنة الاستشراق الفرنسى السابق على الحملة الفرنسية الناتج عن ذهنية قروسطية تقوم على العداء وعدم المعرفة التامة بالآخر بكتابات برنارد لويس القادمة من الأكاديمية الأمريكية فى القرن الحادى والعشرين والباحث لا يهدف إلى إبراز أوجه التشابه بقدر ما يهدف إلى إثبات أن لكل مرحلة تاريخية فضاءاتها وظروفها بحيث يكون أى إسقاط تاريخى هو من قبيل الهوس

بالماضى وهى إشكالية يعانى منها الخطاب العربى الثقافى المعاصر، وبالنسبة لحالة العـراق سـنجد هذه الحالة موجودة وبقوة فهناك عشرات من التقاطعات والتشبيهات والتناصـات مـا بـين أمريكـا والمغول والتتار والصليبيين وما بين بوش وهولاكو... إلخ.

وبالطبع لا يمكن إدانة التناصات التاريخية ولكن ما يغفله هذا الخطاب هو بيان أوجه الاخـتلاف والظروف بين هذه المراحل التاريخية، بالإضافة إلى إعادة إنتاجها من خلال التأكيد علـى خطـاب الهزيمة والنكبة والضياع.

ويرى الباحث أنه لا يمكن مقارنة الحملة الفرنسية التى أثارت الوعى بأهمية الحداثة والـدخول إلى قيم العقل والتنوير بالحملة الأمريكية التى جاءت من خلفيات ما بعد حداثية، ومن الخطـأ الأخـذ بنظريات ما بعد الحداثة التى تقوم على التشظى الثقافى وموت الأفكار والنظريات الكبرى خاصة فى منطقتنا المفتتة أصلاً نتيجة لتراكمات تاريخية أفرزت انقسامات مذهبية وعرقية وفكرية لا نهاية لها، بحيث تصبح الحداثة خيارًا استراتيجياً أمام المثقف العربى، فالقول بترسيخ والأخذ بنظريات ما بعـد الحداثة فضلاً عن إعادة تدوير الذهن العربى نتيجة لأحداث النظريات الغربية سيؤدى إلى حالة مـن التشظى المعرفى والثقافى ستعيشه الثقافة العربية مستقبلاً.

ولكن الملاحظة الأساسية التى يمكن أخذها فى الاعتبار عند إجراء أى مقارنة بين الحملتين هى تقدمية خطاب الجبرتى بالنسبة للعديد من المقولات التى ترددت أثناء الحملة الأمريكيـة، فـالجبرتى التراثى والذى جاء من خلفية أزهرية لم يكن مهووساً بالماضى كما نجد حالياً.

(من يقرأ خطبة مبعوث الملك الأشورى سنحاريب (٧٠١ ق.م) إلى شعب أورشـليم المحاصـر والتى يدعوهم فيها إلى الاستسلام ويحرضهم ضد حاكمهم ويعرض عليهم المكافأة بدلاً مـن توقيـع العقوبة، لن يجدها تختلف كثيراً عن الرسائل التى أسقطتها طائرات الغزو الأنجلو أمريكية على مدن العراق، قبل استسلامها، وتحت نيران القصف الجوى العنيف: "حققوا السلام معـى استسـلموا لـى، وسيأكل كل فرد منكم عنباً من كرمه وتيناً من بستانه وسيشرب كل واحد ماء من بئره) [٢٦٦] ويغيب الوعى أكثر فأكثر عندما تنشر إحدى الصحف تقريراً عن [٢٦٧] العواصف التى هبت علـى القـوات الأمريكية لتساعد العراقيين، ويتصدر التقرير الآية القرآنية "كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيـرة بـإذن الله"، ثم يتحدث التقرير عن وجود ٣٠٠ ألف جندى أمريكى مزودين بأحدث الأسلحة والقنابل الذكية، لكن إرادة الله حولت القنابل الذكية إلى غبية وظهرت العناية الإلهية بجوار الشعب العراقـى فهبـت عواصف رملية فى غير أوانها على القوات الأمريكية وكلما اشتد هجوم القـوات المعتـدين اشـتدت العاصفة الرملية (ولم تستطع الأسلحة الذكية التفوق على عوامل الطقس التى سـخرها الله للوقـوف

بجانب الشعب والجنود العراقيين) [٢٦٨] ويستمر التقرير ليتحدث عن العناية الإلهية واصطدام طائرات الغزو ببعضها البعض (وكأن الله سخر جنودًا من الملائكة تقف ليس فقط بجوار الجنود العراقيين وإنما مع المقاومة العراقية) (٢٦٩) وهذه العناية الإلهية بحسب التقرير لا تملك أمامها إلا أن تقول "وما رميت إذا رميت ولكن الله رمى) [٢٧٠].

هل يمكن القول بتدنى الوعى فى هذه الصحيفة ذات الاتجاه القومى بخلفياته العلمانية عن وعى الجبرتى الأزهرى منذ أكثر من قرنين وهو يسخر من قراءة العوام للبخارى واستنجادهم بالله؟ (فكان العقلاء من الناس يصرخون عليهم ويأمرونهم بترك ذلك ويقولون لهم إن الرسول والصحابة والمجاهدين إنما كانوا يقاتلون بالسيف والحراب وضرب الرقاب لا برفع الأصوات والصراخ والنباح، فلا يسمعون ولا يرجعون عما هم فيه) [٢٧١] .

وهناك ملمح ثالث من ملامح تدنى الوعى فرض نفسه بقوة وبخاصة على الإعلام العربى والمصرى ويتمثل فى تصوير القوة الأمريكية بصورة جبارة تفوق الوصف والعقل ولا يمكن مجابهتها، بدون إعطاء القارىء المتوسط الثقافة أى خلفيات علمية عن هذا الإنتاج التكنولوجى، ففى أول أيام الغزو نشرت جريدة الأهرام القاهرية تقريرًا عسكريًا بهذا المعنى (٣ آلاف قذيفة موجهة وعشرات الآلاف من القنابل التقليدية و ٧٠٠ صاروخ توما هوك فقط على العراق خلال الـ ٤٨ ساعة الأولى من الحرب، والرئيس الأمريكى يمكنه عقد مؤتمر تليفزيونى مغلق مع كل القيادات العسكرية الأمريكية حتى أصغر ضابط فى ميدان القتال، أقمار التجسس ترصد كل شبر فوق الأرض وتتجسس على مكالمات القادة العراقيين المدنيين والعسكريين، وإجراءات إليكترونية أمريكية تصيب وسائل الدفاع العراقية بالعمى والصمم) [٢٧٢] .

وإذا كان هذا الخطاب موجه إلى القارىء العادى، فإن الخطاب الموجه إلى المثقف لا يختلف كثيراً (المجال الكهرومغناطيسى للنبضة الكهرومغناطسية بإمكانه أن يقلى" و"يشوى" كل المكونات الإليكترونية والكهربية لأى دائرة كهربية أو إليكترونية كما أنه سوف "يُقلى" أى ترانزستور أو مقاومة كهربية أو دائرة إليكترونية متكاملة) [٢٧٣] .

وهو الموقف الذى يتقاطع مع تعليق الجبرتى على إحدى التجارب العلمية التى أجراها علماء الحملة الفرنسية أمامه (ولهم فيه أمور وأحوال وتراكيب غريبة، ينتج منها نتائج لا يسعها عقول أمثالنا) [٢٧٤] .

إذن لا يمكن المقارنة بين الحملتين إلا من منطلقين أساسين:

المنطلق الأول يتمثل فى مدى فاعلية حدث ١١ سبتمبر ٢٠٠١ فى الوعى الثقافى العربى باتخاذه تاريخاً محورياً أصبحنا نؤرخ به فى الخطاب الثقافى العربى وهو ما تنبه له طارق البشرى ودعا إلى اتخاذ يوم ٢٨ سبتمبر ٢٠٠٠ (يوم الانتفاضة) كحدث بديل نؤرخ به فى ثقافتنا المعاصرة بدلاً من الحديث عن ما قبل ١١ سبتمبر وما بعده [٢٧٥].

فهذا الحدث بغض النظر عن وجهات النظر المتباينة تجاهه أصبح حدثًا محوريًا على الساحة الثقافية العربية والسؤال هل سيؤرخ هذا الحدث لعصر جديد؟ كالحملة الفرنسية واتخاذها منطلقاً للتاريخ العربى الحديث والمعاصر، وما نجم عن هذا الحدث بعد ذلك من احتلال أفغانستان وسقوط بغداد فى ٩ أبريل ٢٠٠٣.

المنطلق الثانى: وتتمثل فى الخطابات التى أفرزت نتيجة للغزو الأمريكى وهى خطابات تجد خلفياتها المباشرة وأصولها المعرفية لما حل بالوعى المصرى والعربى نتيجة لهزيمة ١٩٦٧، تلك الهزيمة التى خلفت صراعاً عنيفاً بين قوى فكرية متعددة حول تاريخ مصر الحديث والمعاصر وعوامل النهضة والانكسار والرؤى التراجعية للتاريخ وبروز النزعة التراثية الماضوية الهاربة من الحاضر المهزوم إلى ماضٍ سعيد.

الحملة الأمريكية: دراسة حالة لنماذج ثقافية وصحفية"

أفرز الغزو الأمريكى للعراق العديد من الخطابات التى ينطلق أصحابها من خلفيات فكرية وأيديولوجية مختلفة، وهذه الخطابات تعتمد فى خلفياتها المعرفية على نكسة ١٩٦٧، فالخطاب التراثى مثلاً والهوس بالماضى والذى انتشر بشكل واسع فى الصحافة المصرية أثناء وبعد الغزو يجد أصوله وفصوله فى النزعة الماضوية التى تعيشها الثقافة المصرية بعد النكسة سواء على المستوى الإسلامى الذى يرى فى الماضى عصرًا ذهبياً أو لدى القوى العلمانية والتقدمية التى بحثت عن الحداثة الغربية فى التراث العربى الاسلامى، ولا يمكن رد الخطاب القطرى الذى رفع لواء مصر أولاً وقبل كل شىء أثناء وهذه الحملة إلا بالنظر إلى تراجع دور مصر العروبى بدءًا من انهيار المشروع القومى الناتج أيضاً عن هزيمة ١٩٦٧ ثم تقلص الدور الاقليمى المصرى إلى حدوده المحلية بعد اتفاقية كامب ديفيد، وبالمثل سنجد خطاباً بكائياً يستمد مفرداته من نتائج النكسة فى عام ١٩٦٧، ويمكن رد خطاب الإعلام المصرى الرسمى إلى تقلبات خطاب السلطة أو ما يمكن أن نطلق عليه الخطاب الذى يعيد إنتاج خطاب السلطة فى مصر.

١-**الخطاب المؤيد للغـزو:** بالنظر إلى الغزو الأمريكي للعراق وما يحيط بهذا الحدث من تشابك بين انحياز الولايات المتحدة إلى إسرائيل وتردى واقع القضية الفلسطينية وإعلامية الحدث وضغوط الرأى العام.. إلخ كلها ظروف ضيقت من مساحة الخطاب المؤيد للغزو أو جعلته تابعاً وراء آليات إنتاج أخرى جعلته مؤيداً للغزو وإن كان بصورة غير مباشرة.

١/١ **خطاب التأييد المباشر:** يرى مأمون فندى أن الحملة الأمريكية قادمة إلى العراق لطرد صدام حسين بالقوة [٢٧٦] ، ويرى أنه من فساد المنطق أن يرفض العراق الشرعية الدولية فى عام ١٩٩٠ ويتمسك بها فى أزمته الأخيرة [٢٧٧].

وتصبح الحملة الأمريكية ضرورية للقضاء على الأنظمة الديكتاتورية فى المنطقة [٢٧٨].

ويرى هذا الخطاب أن حركة أسامة بن لادن حركة إرهاب دينى ومن يؤيدها من المصريين يسمى "جماعة بن لكن" [٢٧٩] ويدعم وجهة نظره بالعديد من الحجج ولعل الحجة الرئيسية هى غياب الديموقراطية عن الواقع العربى بصفة عامة والعراق بصفة خاصة، ويركز هذا الخطاب أيضاً على عدد من المؤشرات الثقافية المزمنة فى النهضة العربية المعاصرة مثل إشكالية الحداثة التى يعانى منها العالم العربى [٢٨٠].أو أن العرب ظاهرة صوتية وأنهم يعيشون فى مأزق دائم لا ينتهى [٢٨١] أو الدعوة إلى إطلاق الأسرى الكويتيين وضرورة تغيير النظام العراقى [٢٨٢].

وعلى الجانب الآخر لهذا الموقف لابد من ربط مصر بالولايات المتحدة الأمريكية عن طريق أهمية المعونة الأمريكية لمصر[٢٨٣] أو اتخاذ أمريكا كنموذج فى التحديث العلمانى يجب أن تقتدى مصر به [٢٨٤]، وعلى هذا الأساس فمصلحة مصر العليا هى الارتباط بالولايات المتحدة الأمريكية ويتم وصف الرافضين للتطبيع مع إسرائيل بالمكارثية المصرية [٢٨٥] ، والنتيجة المسكوت عنها والتى لا يتم الإفصاح عنها مباشرة أن إدارة بوش هى إدارة الحسم العسكرى والوضوح الأخلاقى [٢٨٦]، ويكسب منطوق الكلام (إدارة الحسم العسكرى والوضوح الأخلاقى) عنه رغبة الكاتب فى الدعوة إلى استقبال الجيوش الأمريكية المتصفة بالحسم والتى ستنهى الحرب بأقل الخسائر وبسرعة فائقة* وبالتالى لا مانع من التعامل معها وخاصة أنها تتسم بالوضوح الأخلاقى*.

٢/١**خطاب التأييد غير المباشر:** فى يوم الخميس ٢٠ مارس ٢٠٠٣ نشرت الأهرام تحقيقاً عن بغداد مصحوب بصورة لطفل مشوه كتب تحتها أطفال العراق هم ضحايا صدام [٢٨٧] وتحقيقاً بعنوان

الـــيأس يسيطر على بغداد [٢٨٨]، وفى يوم ٢١ مارس أجرى إبراهيم نافع حواراً مع ديك تشينى نائب الرئـــيس الأمريكى حيث ردد مقولات الخطاب الأمريكى وتم إبرازها كمانشيتات فى صفحة الأهرام الأولى (العملية العسكرية ستمضى سريعة جداً ولا نريد أن نبقى فى العراق أكثر مما هو ضرورى، ليست هناك قائمة ضرب تتضمن دولاً عربية وإسلامية أخرى بعد العراق، إسرائيل ليس لها دور فى الحرب ونأمل فى ألا يستطيع صدام إطلاق الصواريخ عليها، الرئيس بوش ملتزم برؤيته حول وجود دولـــة فلسطينية تعيش فى سلام إلى جانب إسرائيل) [٢٨٩]، وفى نفس العدد ملف بعنوان الحرب ضد العــراق جاءت إحدى مانشيتاته بعنوان (الولايات المتحدة بدأت عملية "حرية العراق"، غارات جوية وصــــــاروخية عــــــلى بغــــــداد استهدفت "قطع رأس" القيادة العراقية خلال اجتماع برئاسة صدام) [٢٩٠] *.

وبــدءًا مــن يــوم ٢٦ مــارس ٢٠٠٣ بدأت الصحيفة تغير من خطابها فتنشر موضوعات عن ضـــحــايا الهجوم الأمريكى (أبرياء العراق يدفعون فاتورة "القنابل الغبية") [٢٩١]، ومانشيت بعنوان (١٠٠٠ شهيد عراقى فى أكبر معركة برية بين المقاومة والقوات الأمريكية بمدينة النجف) [٢٩٢] .

٢-**إعــادة إنتاج خطاب السلطة:** المتابع للإعلام المصرى أثناء الغزو الأمريكى للعراق سيلاحظ أن هذا الإعلام- خاصة المرئى التابع تماماً للسلطة- قدم معالجة لهذا الغزو وبدأت بالحياد التام وكأن الحرب لا ناقة لنا فيها ولا جمل. وفى أيام الغزو الأولى تم وصف الاعتداء الأنجلو أمريكى بالهجوم على العراق وتم وصف قوات الاعتداء بقوات التحالف.

وتبلورت مواقف الخطاب الرسمى المصرى فى عدة مقولات فصدام بسياسته التى بدأها منذ عام ١٩٩٠ هــو المســئول عمـــا يحدث الآن، ولا يمكن فرض الديموقراطية على نظم غير ديموقراطية بالقوة، والربط بين القضية الفلسطينية والقضية العراقية واعتبار القضية الأولى هى أساس الأزمة فى الشرق الأوسط، وضرورة الالتزام بقرارات مجلس الأمن، والمحافظة على مصلحة مصر العليا[٢٩٣].

والتأكـــيد دائماً على دور الرئيس مبارك فى المحافظة على أمن مصر، وجهوده الدائبة لاحتواء الأزمـــات فـــى المـــنطقة، مع إشارات عديدة لجهوده الجبارة فى دعوة العراق إلى الالتزام بقرارات الشرعية الدولية، وهذه المقولات جاءت فى مؤتمرات صحفية ومقابلات متعددة أجــراها الرئيس مع جهات إعلامية أو ألقاها مباشرة فى خطابات موجهة إلى الشعب المصرى [٢٩٤] .

وتمت إعادة إنتاج هذا الخطاب فى الصحافة الموالية للدولة (الرسمية) فسمير رجب يوظف الدين لإعادة إنتاج هذا الخطاب أو يصدر مقاله المنشور فى جريدة الجمهورية يوم ٢٠ مارس ٢٠٠٣ بهذه

الآية القرآنية (وقال الذى آمن يا قوم إنى أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب: مثل دأب قوم نوح وعـاد وثمود والذين من بعدهم وما الله يريد ظلماً للعباد) [٢٩٥] وتتقاطع الآية مع عنـوان فرعـى للمقـال، التاريخ يشهد بأن مصر تعاملت مع الأزمة وفقاً لمبادىء ثابتة وشجاعة لم تتغير أبداً. والمقال يمتلىء بنقـد الحكومة العراقية (فالحكومة العراقية ظلت تتلاعب بمقدرات هذه المنطقة على مـدى ١٣ سنة) [٢٩٦].

ويختتم المقال بالتأكيد على موقف السلطة (أو فيما يتعلق بنا نحن فى مصر فإن الـرئيس يريـد ونحن جميعاً معه- بأن تتوحد صفوفنا أكثر وأكثر وأن نصون جميعاً جبهتنا الداخليـة ونـوفر لهـا سياجات الحماية من أية جماعات أو نزعات ذاتية هوجاء وألا تكون للمزايدات والشعارات الجوفـاء مكان بيننا.. حتى يظل الأمن القومى المصرى هو الوسيلة والغاية فى كل وقت) [٢٩٧] وأكد إبـراهيم نافع نفس المعنى فى عموده حقائق (ولا يمكن أن يدفع أحد ثمن أخطاء الآخرين فنحن فـى مصـر رفضنا الحرب لأدراكنا لخطورتها على أمننـا ومستقبلنا) [٢٩٨].

وخصصت الأهرام فى يوم ٢٢ مارس ٢٠٠٣ صفحة كاملة تدور عن إعـلان مصـر لحالـة الطوارىء فى كل ما يهم الناس، السلع الأساسية -الكهرباء- المرور- النقل... إلخ [٢٩٩].

وتأكد نفس الاتجاه فى عمود عبد الرحمن عقل الناس والاقتصاد (وعلينا أن نتعامل خلال الأيـام القليلة القادمة على أننا نعيش اقتصاد حرب) [٣٠٠].

ونشـرت أخبـار متعددة عن حالة تأهب فى جميع الوزارات والمحافظـات لمواجهـة آثـار الحرب [٣١٠]، بالإضافة لصورة مواطن كويتى يشترى كميات من الخبز استعداداً لمواجهـة أزمـات الحرب [٣٠٢].

وإعادة إنتاج خطاب السلطة يظهر أكثر فى موقف الأزهر من هذه الحرب ففـى بدايـة الغـزو أصدر مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر بياناً اعتبر فيه أن هذه الحرب صليبية ودعا إلى الجهاد ضد الغزاة واعتبر أن الجهاد فرض عين على كل مسلم ومسلمة ورفض شيخ الأزهر إن يوقع على هـذا البيان وبعد المسيرات الشعبية الضخمة غير شيخ الأزهر مواقفه ليقول إن الجهاد فرض لرد العدوان وبعد الضغوط الأمريكية على الأزهر عبر الدكتور على السمان عن موقف الأزهر الجديد ووصـف صدام حسين بأنه ظالم ومعتد [٣٠٣].

هذا الموقف المتردد والخائف من نتائج الحرب هو ما جعل الحـزب الـوطنى يؤجـل مسـيرة الاحتجاج ضد الحرب، حتى استطاعت المقاومة العراقية أن تصد العدوان فى بدايات مبهرة للمقاومة العراقية جعلت المظاهرات تخرج يومياً إلى الشوارع مما دفع الإعلام الرسمى ليغير لغته من وصف

الاعتداء بالحرب إلى الغزو وتحولت قوات التحالف إلى القوات المعتدية أو قوات الاحتلال (وهو ما انعكس على الأداء الإعلامي المصرى وتمثل فى توجيه النقد المكثف للعدوان قانونياً وسياسياً واعتباره خرقاً للمواثيق والمعاهدات الدولية، وأن يفتح الباب أمام حالة توتر عسكرى غير مرغوبة ومن شأنها أن تؤثر على الاستقرار الإقليمى ككل) [٣٠٤] وبعد اختلاف فصائل المقاومة العراقية وظهور التباينات السياسية والثقافية الداخلية فى العراق، رددت السلطة وردد الإعلام معها أن انسحاب قوات الاحتلال الآن سيؤدى إلى حرب أهلية بالعراق.

ولعل أهم إفرازات هذا الخطاب الذى يمكن وصفه بالميوعة الفكرية هو الخطاب القطرى الذى يؤكد على انعزال مصر واهتمامها بشؤونها الداخلية.

٣- الخطاب القطرى:- مصر أولاً وقبل الجميع

ينطلق الخطاب السياسى الرسمى من واقعية مفرطة تشبه النعامة التى تضع رأسها فى الرمال حتى لا ترى الخطر، فالخطاب الأمريكى المعلن قبل الغزو بأيام قليلة ردد أنه لا توجد دولة عربية على قائمة العقوبات الأمريكية ولم تمض أيام قليلة على هيمنة الولايات المتحدة على العراق حتى ردد الخطاب الأمريكى أن إيران وسوريا وكوريا الجنوبية ينتمون إلى محور الشر، والخطاب السياسى الرسمى الواقعى يؤكد أنه يعمل لمصلحة مصر ويبتعد عن العنتريات [٣٠٥].

وقد رفعت مجلة روز اليوسف لواء الخطاب القطرى وخصصت مجموعة من الملفات بعنوان مصر أولاً وأيضاً قبل الجميع بدأتها بتاريخ ٢٤:٣٠ مايو ٢٠٠٣ [٣٠٦].

وتنطلق روز اليوسف من إعادة إنتاج خطاب السلطة وتبنى مقولاتها الأساسية (الذى صنع مأساة العراق عليه أن ينهيها) [٣٠٧] ويتم التمهيد للدور القطرى بتناص مع موقف السادات من القضية الفلسطينية (هل أسقطت مصر كل الملفات الأمنية القديمة المتعلقة بالفصائل الفلسطينية منذ كامب ديفيد؟) [٣٠٨].

وقبل الغزو أيضاً فعّلت روز اليوسف الخطاب الأمريكى المعلن فى حوار قامت به المجلة على شكل ندوة مع السفير الأمريكى فى القاهرة (نفضل حل الأزمة العراقية سلمياً ولا نرغب فى الحرب) [٣٠٩] وحملت المجلة تبعات الحرب على صدام حسين وإدراته السيئة للأزمة (الخطأ القاتل: رهان صدام حسين على الخلافات الأوروبية الأمريكية) [٣١٠] والمخرج الوحيد للأزمة كما يرى أحد الصحفيين بالمجلة هو رحيل صدام حسين [٣١١]، وفى فترة الحرب صدر عدد من المجلة بملف عنوانه (حرب ظالمة وغامضة) [٣١٢] إلا أننا نجد موضوعاً عن مصر وكيفية أن تتجنب الحرب

والموضوع كله ملخص فى العنوان الرئيسى له (المخطئون صنعوا التاريخ... بغطرستهم فى واشنطن وسوء تقديرهم فى بغداد، حماية مصر من آثار كارثة العصر) [٣١٣].

وبعد سقوط بغداد تنشر المجلة موضوعاً يؤكد على كل مقولات الرئيس [٣١٤]، بالإضافة إلى صورة كبيرة بعرض صفحة كاملة لمواطن عراقى يقبل جنديًا أمريكيًا [٣١٥]، وانطلاقا من الخطاب البكائى اعتبرت المجلة سقوط بغداد نكبة ونكسة وكارثة [٣١٦]، ويلاحظ أن هذه الأوصاف البكائية الثلاثة وضعت فى عنوان واحد، ولم تكن هذه الأوصاف موجهة إلى الأمة العربية أو انطلاقاً من خطاب قومى بكائى بقدر ما هى موجهة إلى النظام العراقى السابق، وبدأت المجلة فى الاتجاه أكثر إلى الذعرة القطرية، فكل من يخالف توجهات السلطة الهادئة والهادفة أمن مصر يسعى إلى دفع هذا الوطن إلى حافة الخطر [٣١٧]، ومن يسعى إلى إشراك مصر فى أى توجه عربى فهو يريد أن يورطها فى الحرب ويستنزف الجيش المصرى [٣١٨] وأصدرت المجلة عدداً خاصاً عن التوجه القطرى جاء ملفه الرئيسى بعنوان (مصر أولاً.. وأيضاً قبل الجميع) [٣١٩]، واعتبرت المجلة أن المشروع القومى الذى انطلق من مصر الناصرية جعل مصر (هدفاً لهجوم ضار وشرس انتهى باحتلال سيناء) وأن (نصر أكتوبر ومعادلة مبارك للتوازن الحضارى أخرجا مصر من دائرة الاستهداف الشريرة) [٣٢٠]، وفى حوار آخر للمجلة مع محسن لطفى السيد أكد على نزعة عمه -أحمد لطفى السيد- المصرية التى تنطلق من الثقافة المصرية البحتة بعيداً عن ثقافة الصحراء العربية [٣٢١] .

وحاولت المجلة أن تستكتب كل من ينتمى للقطرية المصرية حتى لو أدى ذلك إلى رفض الثقافة العربية والثقافة الرعوية بصفة عامة، وهو ما يتماشى مع الديانتين المسيحية والإسلامية فيرى علوانى مغيب أن المصريين أمة توصلت إلى التوحيد وصاغت إبداعات جديدة فى المسيحية (الرهبنة) وفى الإسلام (التصوف) [٣٢٢]، وهو الحل السحرى الذى يقدمه العديدون لصياغة مسيحية مصرية أو إسلام مصرى متنصلاً من أى شيء يمت إلى الصحراء.

والواقع أن هذا الخطاب القطرى* يستمد أصوله وفصوله من توجه السلطة السياسية فى مصر، وهو التوجه الذى يريد عزلة مصر وقيادتها عن المنطقة فى آن واحد فمقدمة الملف سابق الذكر تتضمن تأكيداً على مصلحة مصر العليا والثقافة المصرية الذاتية (صوناً للعروبة.. وجسراً للتواصل الإسلامى الإنسانى) [٣٢٣] .

وفيما عدا ذكر أحمد لطفى السيد وحسين فوزى تخلو الرؤية من الفضاء الثقافى الذى أثيرت فيه قضية عروبة مصر فى بدايات القرن العشرين ولم تمتلك هذه الرؤية جرأة طه حسين حين أثار قضية عروبة مصر فى إحدى مقالاته بكوكب الشرق فى عام ١٩٣٣ حين اعتبر العرب مجرد غزاة

مثل اليونان والترك والفرس والرومان... إلخ [٣٢٤]. ولا جرأته حينما أكد علـــى ضـــرورة ارتبـــاط مصر بثقافة حوض البحر الأبيض المتوسط فى كتابه مستقبل الثقافة فى مصر فى عام ١٩٣٨.

ويلاحظ أن ميوعة هذه الرؤية تأتى من منطلق آخر بخلاف خطاب السلطة وهو جماهيرية مجلة روز اليوسف التى لا تستطيع أن تعبر عن رؤية ثقافية نخبويـــة تتـــردد الآن علـــى ســـاحة الثقافـــة المصرية، فخليل عبد الكريم يرى مثلاً (ومن مهازل التاريخ أنهم فيما بعد- أى العرب- أطلقوا لقـــب البرابرة على مواطنى الدول التى دعسوها بخيولهم المباركة: مصر، فارس، العراق، الشام مع أنهـــا أعلى منهم بما لا يقاس فى مدارج الحضارة والمدنية) [٣٢٥].

وتتقاطع المسألة الثقافية مع هوية مأزومة بين العلمانية والعروبة والإسلام عند سيد القمنى (فـــلا يعود التاريخ المصرى مع الملك مينا موحد القطرين، لكن مع شيخ العرب عمرو بن العاص محتـــل القطرين) [٣٢٦]. أما محمد حسين مؤنس فيرد على توجه قاسم عبده العروبى ويرى أن مصر أخـــذت عنوة واغتصاباً [٣٢٧].

وتعتبر هذه بعض الأمثلة القليلة على هذا الاتجاه، إلا أن خطاب روز اليوســـف افتقـــد الحـــس الزمنى حيث أوائل القرن وعصر يسعى إلى النهضة وتتصارع فيه مئات الأفكار من إســـلامية إلـــى فرعونية مروراً بالفكرة العربية.. إلخ، بالإضافة إلى التأصيل التاريخى الـــذى تكتســـبه مثـــل هـــذه الكتابات فأنتجت خطاباً يتمشى مع توجهات السلطة ويسطح وعى المواطن العادى الذى ينفعل وقـــت الغزو ثم يذهب إلى الكدح وراء معاشه بعد انتهاء الغزو وهو ما قامت به المجلة بذكاء فالملف الـــذى فتحته جاء بعد سقوط بغداد وتوزع وعى القارىء بين تساؤلات غامضة عن هذا السقوط المروع وما إذا كانت هناك صفقة وراءه، بالإضافة إلى وضع اقتصادى مترد، مما سمح لها بالحديث مباشرة عن مصر وتوجهها القطرى وإن كان بصورة غير حاسمة.

ويلاحظ الباحث على الخطابات الثلاثة السابقة (خطاب التأييـــد، أداة إنتـــاج خطـــاب الســـلطة، الخطاب القطرى):-

١-أن هذه الخطابات تنطلق من السلطة سواء بصورة مباشرة أو بصورة غير مباشرة، فالسلطة لم تصرح علناً بتأييدها للغزو ولكن لعبة التوازنات التى شهدتها مصر وخاصة فى حقبة التســـعينيات وسبق أن أشار إليها الباحث. أفرزت التأييد المباشر للغزو.

٢-تحول الإعلام المصرى بعد فترة من الغزو ونتيجة للمقاومة العراقية وضغوط الرأى العـــام إلى تأييد المقاومة العراقية ونقد قوات الغزو.

٣-تميزت الأهرام قبل وأثناء الأيام الأولى للأزمة بتأييد صارخ للغزو عبر نشر حوارات أو تحقيقات أو موضوعات تؤيد الغزو وتصور القوة الأمريكية بالقوة التى لا تقهر وبأن العراق بلد مدمر بسبب سياسات نظامه. واستخدمت اللغة المحايدة الناقدة للعراق فى نفس الوقت وعلى الرغم من أن الأهرام به وجهات نظر عديدة معارضة للغزو فإن رأى مجلس تحريرها بدءًا من رئيس التحرير وحتى المحررين امتاز بتوجه واضح لتأييد الغزو فى البداية، أما المعارضة فجاءت من قبل كتاب المقالات من خارج الجريدة.

٤-تميز الإعلام المصرى الرسمى- المرئى والمسموع- بإعادة إنتاج خطاب السلطة وتغيير الأقنعة تبعاً لتوجهاته.

٥-ركزت روز اليوسف على القطرية المصرية انطلاقاً من توجه السلطة الخفى وانطلاقاً من علمانية تبحث عن جذورها فى المصرية بعيداً عن نزعات عروبية قد تجر مصر إلى كارثة أو نزعات دينية صحراوية.

٦-يلاحظ حشد الإعلام المصرى للمصريين خلف السلطة وأصابتهم برهاب الحرب والنظر إلى المصلحة المباشرة عبر التأكيد على تردى الأوضاع الاقتصادية وإحكام القبضة الأمنية حتى لا تعم الفوضى.

٧-استغلت السلطة الغزو فى إلقاء تبعة فشلها الاقتصادى المتحقق منذ سنوات طويلة على الحرب، وعودة العاملين فى الخليج واحتمالات ضرب السياحة وتهديد قناة السويس... إلخ والمتابع للصحافة فى هذه الفترة سيجد أن الصفحات الأولى من كل الصحف القومية تتضمن أخبارًا وموضوعات عن تأثير الحرب اقتصاديًا بالسلب على مصر.

٨-يستمد هذا الخطاب أصوله وفصوله من مصر السبعينيات، حيث التوجه القطرى والتنصل من القضايا القومية والقيام بلعبة توازنات بين كافة القوى والتيارات، ومع إلغاء الرقابة المباشرة على الصحف فى فترة السبعينيات ووضع قيادات صحفية على علاقة مباشرة مع السلطة وتأخذ توجهاتها مباشرة منها.. كل هذه الظروف أفرزت خطابات تبدو للمتابع أنها تتناقض ظاهرياً بين بداياتها ونهاياتها وهو الأمر الذى انعكس أيضاً على خطاب المؤسسة الدينية.

٤-**الخطاب المعارض للغزو:** على الرغم من وجود أصوات معارضة عديدة داخل الصحف القومية فإن التوجه الأساسى لهذه الصحف كان مؤيدًا للغزو بخلاف صحف المعارضة والصحف المستقلة والتى كانت فى معظم إن لم يكن كل الأحوال معارضة للغزو سواء فى المعالجة الخبرية أو

مواد الرأى (مقالات) أو اللغة المستخدمة داخل هذه الصحف ويلاحظ أن هذه الصحف لـم تخضـع معالجتها الصحفية لتقلبات السلطة بل استثمر بعضها الأزمة لتقدم نقداً مباشـراً لتـردى الأوضـاع الاقتصادية والسياسية التى نعيشها حالياً.

انطلقت جريدة العربى صحيفة الحزب الناصرى من معارضتها للنظام السياسى الداخلى لمعالجة الغزو فى الأعداد السابقة للغزو، فالأنظمة العربية كلها ديكتاتورية تتماثل مع ديكتاتوريـة الـرئيس العراقى ونظامه وبالتالى فإن الولايات المتحدة لا تدعو إلى الديموقراطية بقدر ما تسعى إلى تـدمير العراق والسيطرة على ثرواته (٣٢٨) . واعتبر عبد الحليم قنديل وجود صـدام علـى رأس السـلطة اختبارًا للصلابة والصمود (٣٢٩) ، واعتبرت الجريدة فى حوار مع شبكة س بى إس الأمـريكية أنـه لا قيمة لحياة بلا أمان وأن العدوان على العراق عدوان على مصر (٣٣٠)، وقدمت العربى نقداً عنيفـاً لقانون الطوارىء وانهيار حالة المجتمع المدنى وحقوق الإنسان فى مصر. ولا قيمة لمؤتمرات القمة العـربية وأن الجامعة العربية لا فائدة من ورائها والهدف الاستعمارى الجديد هـو خلـق إسـرائيل الكبرى (٣٣١)، وقدمت الجريدة نقداً للمثقفين العرب وضياع جهودهم وراء الهتـاف بـلا أى نتـائج عملية (٣٣٢) ، واستخدمت الجريدة المانشيتات العريضة الملونة والصور الموحية وتزويد كـل عـدد بملف يحمل اسماً موحياً، فعدد ٢ مارس ٢٠٠٣ مثلا زود بملف عنوانه لا لخيانة الدم العربى.

أما جريدة الأسبوع المستقلة فصدرت يوم ٣ مارس ٢٠٠٣ بمانشيت رئيسى بعنوان (يـا حكـام العرب اتحدوا.. التاريخ لا يرحم) (٣٣٣).

وربط مصطفى بكرى بين الدفاع عن العراق والعمل العربى المشترك واستخدام كـل الأسـلحة الممكنة للدفاع عن العراق (٣٣٤) .

وقامت الأسبوع على مدى عددين بتتبع المظاهرات وأفردت لها مساحات كبيرة وعبـرت عـن مظاهرة يوم ٢٧ فبراير ٢٠٠٣ بصورة بعرض الصفحة الأخيرة عبارة عن رسـم تعبيـرى لكتـل بشرية ومكتوب تحتها مصر تنتفض، كلنا هنا قنابل بشرية (٣٣٥)، وعالجت المظاهرات عالمياً، ففـى العدد التالى صدرت الجريدة بمانشيت كبير بعنوان بوش ضد العالم.. والعالم ضد بـوش، ومانشـيت آخر، شيراك.. شرودر .. بوتين هؤلاء هم العرب الحقيقيون (٣٣٦) .

ويلاحظ أن النقد الداخلى الذى وجهته العربى أقوى من نقد الأسبوع فالأسبوع قـدمت متابعـات نقدية للأزمة عربياً وعالمياً ولم تقم بنقد الأوضاع الداخلية بل نشرت حـواراً مـع وزيـر الإعـلام المصرى (٣٣٧) وهناك سمة هامة اشتركت فيها معالجة الصحيفتين وهى الطابع التفاؤلى فـى الفتـرة

السابقة على الحرب، ففى يوم ١٦ مارس نشرت العربى حواراً مع الفريق سعد الدين الشاذلى أكد فيه أن اقتحام القوات الأمريكية لبغداد مستحيل [٣٣٨] .

أما الأسبوع فقد تساءل محمود بكرى هل تتحول العراق إلى مقبرة للأمريكان؟ [٣٣٩] ونشرت حواراً مع طارق عزيز: مستعدون للدفاع عن أنفسنا ومواجهة أمريكا والهجوم على العراق بداية النهاية لأمريكا [٣٤٠] وبعد الغزو استمرت المعالجة الصحفية فى الجريدتين تتسم بالتفاؤل، فصدرت العربى يوم ٣٠ مارس بمانشيت (إجبار القوات الأمريكية على وقف التقدم إلى بغداد لستة أيام، بغداد يا قلعة الصمود، المقاومة العراقية كشفت أكاذيب أمريكا [٣٤١]، واعتبرت الجريدة أن ما حدث فى العراق معجزة وأن القيادة العراقية تصرفت بحكمة ولم تدفع بكامل قواتها [٣٤٢]، وتسليح الشعب العراقى ينسف فكرة الطاغية [٣٤٣]، أما الأسبوع فقد أصدرت طبعة ثانية يوم ٢٤ مارس ٢٠٠٣ لمتابعة أخبار المقاومة، وصدرت بمانشيت تفاؤلى ديماجوجى (الأمريكان بقوا مسخرة يا رجالة) [٣٤٤] . وكتب مصطفى بكرى مقالة بالعقل بمانشيت عريض بعنوان (الله أكبر) [٣٤٥] .وبداخله عنوان فرعى (بغداد العروبة والإسلام ستبقى شامخة تتحدى هولاكو العصر جورج بوش) [٣٤٦]، واستمر تفاؤل الصحيفة ففى عدد ٣١ مارس جاء المانشيت على النحو التالى (المعتدون يغيرون خططهم عدة مرات.. والعراقيون يتحركون بثبات) [٣٤٧]، وجاء الحوار مع الشاذلى فى الأسبوع ليتسم بالفجاجة فهو يصرح: الجيش العراقى يستطيع الصمود ٢٠ عاماً [٣٤٨] .

وواصلت جريدة العربى اتجاهها التفاؤلى حيث صدر عدد ٦ أبريل ٢٠٠٣ بمانشيت (مقتل مئات الأمريكيين فى معركة مطار بغداد) [٣٤٩].

ويلاحظ أنه قبل سقوط بغداد بقليل بدأت صحف المعارضة فى تقديم نقد عنيف لدول الخليج وبصفة خاصة دولة الكويت، فقد نشرت العربى صورة كبيرة فى الصفحة الأولى لكويتى يقبل العلم الأمريكى ومذيلة بكلمة (السقوط) [٣٥٠]، وكتب محمد عودة (ليس هناك حدث يثير التقزز والاشمئزاز ويلطخ ما بقى من تاريخ العرب مثل أن تدار الحرب ضد العراق من عاصمة عربية وأن تنطلق القوات الغازية من عواصم وموانىء عربية) [٣٥١]، وطالبت الجريدة بمنع مرور السفن الحربية الأمريكية والبريطانية من قناة السويس [٣٥٢].

أما الأسبوع فقد جاء المانشيت الرئيسى للعدد الصادر يوم ٢٨ أبريل ٢٠٠٣ بعنوان (إمارة الكويت المحتلة تعلن الحرب على عمرو موسى) [٣٥٣]، وطالب سيد نصار بطرد الكويت من جامعة الدول العربية (فإنهم- أى الكويتيين بتصرفاتهم منذ نشأة الدولة الكويتية بعد إقتطاعها من محافظة البصرة العراقية عام ١٨٩٩ بقرار من المعتمد البريطانى فى الخليج كانوا عامل تخريب وتهديد

للأمن القومى العربى) [٣٥٤] ، ويطالب محمود بكرى بطرد إمارة الكويت المحتلة المارقة من جامعة الدول العربية ومقاطعة حكومتها ومؤسستها الرسمية [٣٥٥] ويصل نقد الجريدة أقصاه عندما تنشر صورة لكويتى يحمل العلم الأمريكى والبريطانى مذيلة بـ (عبد أمريكى سفيه والجنسية كويتية يهلل لأمريكا وبريطانيا لذبح العراق) [٣٥٦].

وهذا الخطاب المعارض والمقاوم أفرز خطاباً تراثياً بامتياز لتفعيل روح المقاومة العراقية والشعوب العربية والإسلامية المتضامنة معها.

٤-١الخطاب التراثى: من المقاومة الفعلية إلى الاستنجاد بالتراث: يلاحظ أن مفردات الخطاب التراثى التى تم توظيفها فى الغزو الأمريكى للعراق لم تكن أكثر من عنتريات لم تفعل شيئاً*، وستعم مفردات هذا الخطاب المجلات الثقافية كالهلال ووجهات نظر، وتم توظيف الخطاب التراثى ليخدم التوجهات الأيديولوجية لكل اتجاه فلم يقتصر الخطاب التراثى على المعارضة فقط بل امتد للصحف القومية، فمجلة روز اليوسف تنشر تحقيقاً عن شيعة العراق والذين يحيون واقعة كربلاء للبكاء على سيد شباب أهل الجنة بعد عقدين من الزمن نتيجة لحكم صدام حسين ويمتلىء التحقيق بصور لرجال تسيل من وجوههم وصدورهم الدماء ويستخدمون السيوف والسلاسل الحديدية لضرب الرؤوس والصدور نتيجة للندم [٣٥٧] والتحقيق نقلاً عن شبكتى سى.إن.إن، وبى بى سى الأمريكتين، ويثير هذا التحقيق عدة نقاط تتفق مع توجهات المجلة فهو أولاً يؤكد على التشرذم الطائفى فى العراق ولا تنطلق المجلة من منطلق الخطاب المعارض والذى يرى أن التشرذم الطائفى فى العراق سيستهلك القوة العسكرية والسياسية للولايات المتحدة، وإنما يؤكد التحقيق على التشرذم الطائفى الذى يؤكد على عنف الممارسات الشيعية وخصوصية المسألة الشيعية وصعوبة احتوائها عربياً [٣٥٨] وخضوعها فيما سبق لديكتاتورية النظام السابق وكلها أهداف تتمشى مع اتجاه المجلة.

أما جريدة الأسبوع فخصصت صفحات كاملة للاتجاه التراثى فى أعدادها السابقة واللاحقة للغزو، فقد صدرت يوم ٢٤ فبراير ٢٠٠٣ بمانشيت (الحرب الصليبية باتت على الأبواب، أين صلاح الدين) [٣٥٩].

أما مصطفى بكرى فيرى (تهجموا على الرسول صلى الله عليه وسلم، اعتدوا على المحرمات، فتحوا الأبواب للمرتدين، أطلقوا غلاة القساوسة المتطرفين، حاصرونا وتعاملوا مع شيوخنا ورموزنا بوصفهم قتلة وإرهابيين، تدخلوا لتغيير مناهجنا التعليمية، وسعوا لتفسير أحكام القضية وفقا لمصالحهم وأهوائهم) [٣٦٠]، ويحمل العدد ملفاً بعنوان الحرب الصليبية والعجز العربى، وفى تقرير

مترجم عن مجلة ديرشبيجل الألمانية (نكشف ما كنا نخاف الكشف عنه، إنها الحرب الصليبية ضد الإسلام) (٣٦١)، ويتساءل أسامة عفيفى (ما هو السر وراء اختيار ميدان السيدة زينب كمكان لإعلان الاحتجاج ضد العدوان على العراق؟ هل لأننا اكتشفنا أن الحل الوحيد لمواجهة الأمريكان هو استعداء السيدة عليهم أم لأن السيدة زينب رضوان الله عليها هى كما يقول الموروث الشعبى أم العواجز!!) (٣٥٢)، وفي يوم ٢٤ مارس صدرت الجريدة بمانشيت (بوش يقرر هدم المسجد الأقصى فى حال سقوط بغداد) (٣٦٣) ويتساءل حيدر خضير (هولاكو القرن العشرين هل ينجح فى إسقاط عاصمة الخلافة الإسلامية) (٣٦٤) وبدأت حدة البعد التراثى تقل تدريجياً بعد سقوط بغداد* ، وفى إشارة إلى تراجع العمل العربى المشترك يستوحى قاسم عبد قاسم شخصية صلاح الدين الأيوبى ليتساءل: صلاح الدين الأيوبى هل صنع عصره، أم صنعه عصره؟ حيث يبحث عرب هذا الزمان عن منفذ أو مخلص يخرجهم من ضباب هذه الأيام الرمادية لزمن ردىء خلقناه بالسلبية والسكون والسكوت) (٣٦٥) .

ويستعرض عطية القوصى تاريخ العراق كله من السبى البابلى إلى تدمير هولاكو لبغداد إلى سقوط بغداد الأخير (٣٦٦) ، ويؤكد المؤلف على التقاطع التاريخى (وما أشبه اليوم بالبارحة، وها هى العراق تتعرض اليوم لعدوان صليبى غاشم جاءها من ناحية الغرب على غرار عدوان المغول الذى وقع عليها من الشرق وكأن التاريخ يعيد نفسه، وكما استهدف المغول الإسلام وخلافته فى الماضى، فصليبيو التاريخ الحديث يستهدفون الإسلام أيضاً هذه الأيام متواطئين فى ذلك العدوان مع الصهيونية العالمية) (٣٦٧).

ويختم الكاتب مقالته بالتأكيد على الاستنجاد بالتراث (لكن الله ناصر دينه وقد وعد عباده المسلمين بالنصر) (٣٦٨)، ويؤكد يوسف زيدان فى مقال آخر بنفس العدد على أن الحضارة العربية الإسلامية دخلت بعد سقوط بغداد على أيدى التتار أفقاً مأساوياً حزيناً لم يخرج منه المسلمون إلى اليوم (٣٦٩).

ويلاحظ أن الخطاب التراثى دخل بعد سقوط بغداد فى المرحلة التشاؤمية فبعد ما كان يتم الاستنجاد بالتراث لدعم روح المقاومة، تتم استعادة التراث للبكاء على الأطلال، فيكتب فاروق عبد القادر عن تراجيديا كربلاء (٣٧٠)، وهذا التوجه التشاؤمى والذى استبق الأحداث ونشأت المقاومة الشعبية بعد ذلك.

٤-٢خطاب الهزيمة: وأيديولوجيا جلد الذات: يمتاز خطاب الهزيمة بالنبرة البكائية والتى تستمد أصولها من هزيمة ١٩٦٧ فتنشر جريدة الأهرام الاقتصادى مجموعة من الموضوعات الصحفية

المسلسلة بعنوان العراق وإزالة آثار العدوان بإشراف أحمد يوسف القرعى بدأت بالعدد الصادر يوم ٢١ أبريل ٢٠٠٣ (٣٧١) .

وتصدر جريدة العربى يوم ١٣ أبريل ٢٠٠٣ ونصف الصفحة الأولى عبارة عن صورة كبيرة لنساء يبكين ويلطمن الخدود ومذيلة بعنوان المحنة (٣٧٢) .

وهذا الخطاب الذى انتقل من المقاومة إلى التراث انتهى بالنكبة والبكاء، (صدام لم يهرب.. وخيانة بغداد بدأت فى البصرة) (٣٧٣) ووصفت الجريدة وكتابها عدة احتمالات ليس من بينها خيانة السلطة العراقية، فيضع محمد عبد الله بدر ثلاثة سيناريوهات لتفسير اختفاء صدام حسين، السيناريو الأول الخيانة ويرفض هذا الاحتمال لاستحالة الهرب بكل هذه الجحافل العسكرية، والسيناريو الثانى الهرب المدروس وينقصه ظهور الرئيس المتكرر أثناء الغزو، أما السيناريو الذى يؤيده الكاتب فهو الاختفاء فى الشقوق المعدة لقيادة المقاومة الشعبية فيما بعد (٣٧٤) وتطرح جريدة الأسبوع فى مانشيتاتها الرئيسية يوم ١٤ أبريل نفس الأسئلة حول صدام حسين (الأبطال لا يستسلمون والأعداء حتماً سينهزمون، لغز اختفاء صدام حسين، هل قتل .. خانه قائد الحرس.. اختفى تحت الأرض) (٣٧٥)، وفى ٢١ أبريل تنشر الجريدة مانشيتاً كبيراً (صدام يظهر مجدداً ويقول لقد خانونى) (٣٧٦)، وتنشر الجريدة صوراً متعددة لصدام حسين وهو بالقبعة الغربية أو بالعقال العربى أو بالزى العسكرى أو بالقبعة الروسية، ويكتب مصطفى بكرى تقريراً يوم ٢٨ أبريل ٢٠٠٣ يرى فيه أن صدام حسين اكتشف الخيانة متأخراً وسعى للتحرك ولكن بعد فوات الأوان (٣٧٧) .

ويلاحظ أن جريدة العربى والتى وصلت إلى أقصى معارضتها للنظام بنشرها لبيان المثقفين المصريين والذين يعترضون فيه على بيان الرئيس مبارك والذى اعتبر أن العراق هو سبب العدوان الأمريكى (٣٧٨) . هذه الجريدة المعارضة للسلطة تؤيد نظام صدام حسين الديكتاتورى والملاحظة الثانية أن تنوع صور صدام والتناول الإعلامى له ولشخصه والاختلاف حوله فهو فى رأى البعض خائن وفى رأى آخرين مخلص للعروبة والإسلام وكاره لإسرائيل) (٣٧٩).

وبالإضافة إلى حالات التخبط التى شهدها الخطاب المعارض نتيجة لكارثة سقوط بغداد يلاحظ أنه بعد سقوط بغداد مباشرة تراوحت المعالجة بين عدم تصديق خيانة النظام العراقى، وحتى وإن سقط النظام لأسباب غير معلومة فلن تنتهى المقاومة أبدا (لم تسقط بغداد المقاومة) و(أبداً لن نستكين) (٣٨٠) وهو ما يتناقض مع أخبار وتقارير وصور عن انتهاك الجنود الأمريكان للنساء العراقيات (٣٨١)، وهو الاتجاه اللاهث والذى يشك فى كل شىء (مطلوب محاكمة كل عربى عاون الأمريكان فى احتلال العراق) (٣٨٢).

وتصـــدر مجلة الهلال فى عدد مايو ٢٠٠٣ ملـ بعنوان مراجعة الذات، يحتوى على عدة مقالات تعـــبر عـــن الـــنقد العنيف للذات الحضارية فيما يشبه جلداً للذات، فيتحدث صلاح قنصوة عن الذات والهويـــة والآخـــر الحضارى وتأثير هزيمة ١٩٦٧ على الوعى العربى المعاصر وفشل مشروعات النهضة وإعادة قراءة التراث والحنين إلى الماضى، وبدلاً من التعلم من الغرب أصبح هذا الأخير هو الآخـــر اللعين فى الوعى العربى (وبدلاً من ذلك علينا أن ندرس لماذا سبقنا واستعمرنا، والإجابة هى أنـــه استطاع أن يقيم رأسماليته الوطنية التى أدت إلى أن ينشيء كل إقليم من أقاليم دولته القومية. أى وطـــنه الـــذى يستوعب أمته وأن يطور علمه وأن يرفع من قيمه العصامية ويسمح بالتعددية وتداول السـلطة ومـــن ثم تزدهر جميع الآراء ومنها نقد الرأسمالية نفسها [٣٨٣] ويتطرق الكاتب إلى أن أكثر الجماهير التى احتشدت لمواجهة الغزو ومعارضته هى جماهير غربية [٣٨٤] .

ويعـــود ســؤال الهوية الثقافية بكل إشكاليته التاريخية والحضارية ليفرض نفسه بقوة على ساحة الثقافة العربية [٣٨٥]، ومما يزيد من أهمية هذا السؤال العلاقة الجدلية المركبة ما بين ذات تسعى إلى تحقيق نهضتها الذاتية ولم تنجح فى ذلك خاصة فى ظل استعمار حديث يريد أن يفرض عليها الحداثة بـــالقوة ولمصالحه الذاتية [٣٨٦] ويصاغ كل هذا فى جو من اليأس والتشاؤم [٣٨٧] والأفكار التى تؤكد علـــى نهايـــة العـــروبة [٣٨٨] خاصة فى ظل النقد العنيف الذى وجهه البعض لفكرة القومية العربية والقوميين العرب [٣٨٩].

ويلاحـــظ أن الخطـــاب المعارض هو المعادل الموضوعى لخطاب تأييد الغزو فإذا كان خطاب التأيـــيد قـــد أعـــاد إنتاج خطاب السلطة وتدويره بما يؤكد عليه من خصوصية قطرية مصرية، فإن خطـــاب المعارضـــة قد فعّل كل ما يمكنه من معارضة خطاب السلطة والسعى إلى نقدها على كافة المســـتويات عبر قضية قومية مصيرية كالغزو الأنجلو- أميركى للعراق. ويعتبر الخطاب الصحفى المـــتابع للغـــزو دراســـة حالة جيدة للخطاب السياسى والثقافى العربى بعد هزيمة ١٩٦٧ خاصة أن خطـــاب المعارضـــة وبصفة خاصة القومى ينطلق منها ويستخدم مفرداتها ويمارس جلداً عنيفاً للذات بـــناءً علـــى الوعى العربى المهزوم بدءًا من هذا التاريخ، ويمارس الخطاب المعارض كافة مفاعيله النقدية المتاحة له على الساحة العربية فمن نقد التسلط السياسى إلى نقد التشرذم العربى إلى نقد الثقافة والمثقفيـــن.. إلخ كلها قضايا تظهر ما يهيمن على الساحة الثقافية المصرية والعربية، الآن، وإن كان يعـــترى هـــذا الخطـــاب الفجاجـــة أحياناً والقومية المفرطة فى أحيان أخرى والتناقض الوقتى غير المدروس- نقد التسلط وتأييد النظام العراقى.

ويعتبر الخطاب المؤيد حالة نموذجية هو الآخر لدراسة خطاب السلطة ومدى تفعيل خطابها هى الأخـــرى بـــدءًا من الانكفاء القطرى المغلف بنزعة ثقافية انعزالية وانتهاءً بتعمية الشعب عن حقائق

واضـــحة واتخـــاذ حالة الحرب كغطاء لها –الحالة الاقتصادية- مروراً بلعبة توازنات باتت مكررة ومعروفة.

أمـــا الخطـــاب الـــثقافى فما زال مهموماً بلغة النهايات التى أفرزها حدث ١٩٦٧ وحالة التشاؤم والحلم الكابوسى الذى يعيشه المثقف العربى والذى جعله يتقاطع مع التاريخ ليستمد منه المدد والعون سواء للتأييد وشد الأزر أو للبكاء على الأطلال، وتوارى الخطاب العلمانى وراء معالجة تؤمن أحياناً بـــالقوى الغيبـــية وتســـتمد المساعدة من رموز دينية، وتحولت المعالجة أحياناً لما تهدف إليه العولمة الأمريكـــية النيوليبرالـــية إلى مسألة صراع دينى بين أصولية مسيحية يمينية أمريكية وجهاد إسلامى ولذا امتلأت الصحف فى هذه الأثناء بالتأكيد على هذين البعدين واستفتاء رأى مشايخ الدين فى الجهاد بعـــيداً عـــن لعبة توازنات شيخ الأزهر والمؤسسة الدينية الرسمية، ولأن العلمنة غائبة تماماً امتلأت صـــحف هـــذه الفترة بالتأكيد على ثلاثة آليات بالنسبة للدين المسيحى، مخالفة ما يفعله بوش لصحيح المســـيحية، وتأكـــيد رجال الدين المسيحيين المصريين أحياناً على أن الحرب ليست دينية أو صليبية والتأكـــيد على وحدة عنصرى الأمة المصرية، وفى بيئة لم تستكمل حداثتها وتهاجم بعولمة إمبريالية رجعية تكثر البرامج الدينية فى الإعلام المرئى وتتوقف الأغانى والبرامج الترفيهية طوال مدة الغزو ويكـــثر عـــدد المصلين فى المساجد ويكثر دعاء أئمة المساجد على أمريكا الصليبية ويتوقف الزمن العربى عند لحظة الصدمة الحضارية الأولى، لحظة الجبرتى.

خاتمة: عيوب الذات فى مرآة الآخر:

أحدثت الحملة الفرنسية على مصر فى عام ١٧٩٨ ما يشبه الصدمة الثقافية أو صدمة الحداثة والتى يعرفها أحد الباحثين على النحو التالى:

(حالـــة شـــعور بالغموض واللا أمن والتوتر المترتب عن العزلة فى بيئة جديدة وهى تنشأ كلما الـــتقى فرد أو مجموعة أفراد يحملون بنية ثقافية ذات نمط معين بفرد أو مجموعة أفراد ذوى أصول مختلفة) [٣٩٠] .

هذه الحالة التى تعبر عن الغموض والتخبط وعدم القدرة على الحسم هى حالة الوعى العربى منذ الحملـــة الفرنســـية وحتى الآن وهو الوعى الذى انقسم تجاه الحملة وبالتالى الغرب إلى التأييد أحياناً والرفض أحياناً، والإعجاب تارة والاندهاش تارة أخرى وهى مواقف لا تختلف عن مواقف الجبرتى المعاصـــر للحملـــة الفرنســـية وتتكرر كصورة كربونية فى الغزو الأمريكى للعراق مع ارتفاع نبرة الرفض نظرًا لآنية الحدث. والمتابع للخطاب الثقافى الخاص بالشأن العراقى سيلاحظ أن ما حدث هو أول الملاحم العظيمة والحوادث الجسيمة والوقائع النازلة والنوازل الهائلة وترادف الشرور بتعبيرات الجبرتى، وسيلاحظ النقد السياسى الداخلى الذى أدى إلى الغزو الأمريكى أو بتعبير الجبرتى وما كان ربـــك مهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون، ويعتبر الخطاب التراثى التفوق الغربى من اختلاف الزمن وانعكاس المطبوع وانقلاب الموضوع.. بل إن وعى الجبرتى بالتفوق الغربى والتدهور الذاتى يعكس رؤية تتجاوز رؤى عديدة موجودة على ساحة الثقافة العربية الآن، وهو ما يثير مسألة حدود النهضة العربية التى حاول العرب القيام بها خلال القرنين الماضيين.

والملاحـــظ أن الأعمـــال الفكرية الناقدة للحملة الفرنسية لم تستطع أن تثير حدوداً قاطعة للنهضة تغايـــر الحملة وما أثارته فى الوعى العربى ولو بالسلب (أى إجهاض محاولات التحديث الذاتية التى قامت بها الطبقة الوسطى المصرية فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر).:

وبعـــيداً عن الصور المأساوية التى شهدتها مصر قبل قدوم الحملة بأعوام قليلة ولعل أشدها وطأة المجاعة التى حدثت فى عام ١٧٩٢ حتى صار المصريين (يأكلون الأطفال) [٣٩١] بتعبير الجبرتى أو أوضـــاع الفلاح المصرى بعد ذلك بما يقرب من قرن كامل كما يرصدها صلاح عيسى [٣٩٢] سيقفز الباحـــث أكـــثر مـــن قرن آخر ليقرأ تقريراً عن حالة المجتمعات العربية فى الربع الأخير من القرن العشـــرين فالمجـــتمعات العربية تعانى من (حالة الأمية التى تبلغ نسبة عالية فى الكثير من أقطارنا، وحالـــة التديـــن الـــتى تتمثل فى الغالبية العظمى من جماهيرنا، وحالة التجزئة التى آلت اليها رقعة الأرض العربـــية، وحالة التعددية الطائفية والمذهبية والعرقية، وحالة التبعية الاقتصادية ومضاعفاتها

السياســية والاجتماعــية والثقافــية، وحالة التاريخ الحضارى المتنوع والمتراكم من عصور البابليين والفينيقييــن والفراعــنة والبربر إلى العصر المسيحى وعصور الإسلام المتعاقبة والغزوات الأجنبية المتتالية، هذه الحالات وغيرها كثير تتفاعل مع بعضها البعض وتثمر فى النهاية تركيبة عربية مميزة الخصائص التاريخية) [٣٩٣] .

ومــن ناحية أخرى فإن أى قارىء لتاريخ الجبرتى سيلاحظ مدى استبداد المماليك وإغارتهم على المحــلات والعباد، وسيدرك القارىء من خلال قراءة أى تقرير [٣٩٤] عن أوضاع التعذيب فى أقسام الشــرطة فى مصر الآن وبعد قرنين مما أطلق عليه النهضة أو صدمة الحداثة أن الوضع لا يختلف كثيراً عما أورده الجبرتى.

وبالإضــافة إلــى تردى الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والاستبداد السياسى الذى نعيشه حالياً يصبح التساؤل الذى يتناول مسألة حدود النهضة فى أى مرحلة من مراحلها ذا صفة مشروعة خاصة أن معظــم الأعمــال الــتى تتــناول مسألة النهضة العربية تحصرها فى مراحل متعددة لعل أبرزها المرحلة الليبراليّة (١٩٢٣-١٩٥٢) ويلاحظ أن هذه المرحلة تكتسب أهميتها من عاملين هامين:

الأول: هــو حــدوث حالة من تداول السلطة يتولى فيها الوفد حزب الأغلبية- السلطة من خلال انتخابات حرة أحياناً*

الــثانى: هــو صــدور عــدة كتــب نهضــوية فى هذه الفترة أمثال كتب طه حسين وعلى عبد الــرازق.... إلــخ ووجود تيارات فكرية وسياسية متصارعة على أرض مصر وكثيراً ما يكون هذا الصراع من خلال صحافة نابضة بالحيوية والتأثير.

ولكــن هــذه الصــورة ترصد النهضة على المستوى النخبوى بما يبقيها داخل إطار المثاقفة بين المثقفيــن العــرب، فرؤوف عباس مثلاً يرصد صورة واقعية شديدة البؤس للأوضاع الاقتصادية فى مصر خلال حقبتى الثلاثينيات والأربعينيات من القرن العشرين [٣٩٥] .

ويقــدم أحــد الباحثين تقريراً عن الحالة الاجتماعية للفترة الليبراليّة بعد الحرب العالمية الثانية، فالــنموذج العصرى الليبرالى (قد أفلس تماماً إذ إن ٠.٤% من كبار الملاك يستحوذون على ٢٤,٢% مــن الأرض الزراعــية وأن عــدد المستشفيات الحكومية فى مصر ٢٠ مستشفى، وفى الصعيد كله مدرســة ثانويــة واحــدة ونسبة الأمية ٩٨% بين الإناث، وحوالى ٨٠% بين الذكور، وعدد عمال التراحيل فى الريف يزيد عن المليونين) [٣٩٦].

وتلــك هى الظروف التى أدت إلى انتعاش المنظمات الشيوعية فى مصر الأربعينيات كما يرى رفعــت الســعيد (٣٩٧) أو الإخوان المسلمين كما يرى رول ماير (٣٩٨)، أى أصحاب الحلول الجذرية ومواقفهم الراديكالية إزاء معادلة الحداثة ما بين الذات / الآخر.

ويلاحــظ أن ســؤال الحداثــة بيــن قوى تقدمية وأخرى تراثية لم يحسم حتى الآن وإن امتازت المرحلة الناصرية بهدوء نسبى فى الصراع الدائر بين قوى الصراع الأساسية نتيجة للإنجازات التى حققهــا المشــروع القومــى بالإضافة إلى الإقصاء السلطوى للإخوان مثلاً خلال هذه الحقبة، ونفس الإقصــاء شــهدته الحــركة اليسارية قبل التحالف مع السلطة الناصرية بعد عام ١٩٦٤، ثم ضرب المشــروع القومــى فــى عــام ١٩٦٧ نتيجة لقوى غربية وهو ما يشير إلى جدل الداخل والخارج. والتحديــث وفــق متطلبات ذاتية وتحقيق معدلات نمو عالية ثم يقوم الغرب بالتدخل فى هذه التجارب كمــا حــدث مع تجربتى محمد على وعبد الناصر، مما يثير التساؤل حول السمة الدائرية فى التاريخ المصرى الحديث فهناك تجارب تنموية تحقق معدلات تحديث مرتفعة وتتسم بالطابع الشمولى (محمد علــى- عــبد الناصر) وتسير بالدولة تجاه الحداثة ثم يتدخل الغرب لإفشال هذه التجارب (١٨٤٠-١٩٦٧)، وهــناك مــراحل تتسم بديموقراطية نسبية مع معدلات نمو منخفضة وتبعية سياسية للآخر الغــربى مــثل المرحلة اللاحقة للاحتلال الإنجليزي لمصر والحقبة التى نعيشها حالياً منذ السبعينيات وحتى الآن.

ومممــا يــزيد الصــورة بؤساً أن الغرب العسكرى جاء إلينا هذه المرة -حالة العراق- والمنطقة العربية فى أضعف حالاتها مما فجر إشكالية الداخل والخارج بصورة لم يسبق لها مثيل، حيث سيثار بعــد سقوط بغداد مسألة تجديد الخطاب الدينى وستنزع القضية من سياقاتها المحلية ليرى العديد من المثقفيــن أن هــذه المسألة تثار وبقوة الآن وبفعل الضغط الغربى وستتشكك الناس من أى إصلاحات تتخذها السلطة فى أى مجال* ، وتثير مسألة استبداد السلطة الداخلية مع ضغوط الخارج مسألة شائكة تفجــرت فــى الأحداث الأخيرة وهى مسألة العلاقة بين الاستبداد والاستعمار، وإلى أى مدى نتمسك بالاســتبداد لــنواجه الاســتعمار، وأى طريق نسلكه لنقى أنفسنا التدخل الأجنبى المستمر خاصة أن الغــرب- الولايــات المــتحدة الأمريكية- لا يريد نظماً ديموقراطية بقدر ما يريد سلطة تابعة، وهل نرضــى بالاســتبداد الــتابع؟ أســئلة كثيرة أثارتها الهجمة الأمريكية على المنطقة مؤخراً، والمتابع للخطــاب الــثقافى الحديث سيلاحظ أنه خطاب يتحاور فى الأساس مع الثقافة الغربية، فحتى الوسائل الــتى تستخدمها للحوار مع الغرب هى من صنع الغرب ذاته (٣٩٩) وهو ما يثير مسألة إشكالية البحث فى النظام الثقافى العربى بدءًا من التأريخ لهذا النظام وحتى القوى الفاعلة فيه ومروراً بأبرز قضاياه.

فبالنسـبة للتأريخ لهذا النظام تسود رؤية كابوسية للتاريخ العربى الحديث تبدأ من ١٧٩٨ وتنتهى بعـام ٢٠٠٣ ومـروراً بهزيمة ١٩٦٧، فأحد المثقفين العرب فى تعليقه على حرب الخليج الثانية فى عـام ١٩٩١ يـرى أن النظام الثقافى العربى بدأ فى عام ١٧٩٨ ثم احتضر فى عام ١٩٦٧ ثم توفى وانهـار تمامـاً فى حرب الخليج الثانية [٤٠٠] وسيضغط عام ٢٠٠١ على الوعى بتبعاته المتمثلة فى احتلال أفغانستان ثم العراق فى عام ٢٠٠٣ وهو ما أفرز أدبيات السقوط والانهيار وجلد الذات الدائم ومفردات النكبة والمحنة.. إلخ.

وإذا انـتقل الباحث إلى أبرز إشكاليات وقضايا هذا النظام سيجد أنه يعانى تأرجحاً بين الموروث والوافد، فقد تم وضع الدين فى قلب إشكالية التيارات الناقدة للدين فى أوروبا فى القرن التاسع عشر، فيؤلف الأفغانى رسالة الرد على الدهريين من دون وجود تيارات دهرية قوية فى المجتمع الإسلامى آنـذاك، وتثار مسألة العلم والدين فى بدايات القرن العشرين، ثم يفسر الإسلام تفسيراً اشتراكياً خلال الحقـبة الناصرية، ثم تفسيراً رأسمالياً بعد ذلك، ثم يتم وضع الذات أمام الحداثة والعولمة ثم وضعها أمـام سلسـلة المابعديـات، مـا بعد الحداثة.. ما بعد الصناعة... إلخ. دون مرور مجتمعاتنا أصلاً بالحداثـة، وعـندما يـرتد الغـرب ليناقش صراحة مسألة الإسلام نجد سلسلة المؤتمرات والندوات والأدبـيات التى تناقش مسألة الإسلام والغرب مما أفرز إشكاليات العلم / الدين، الأصالة/ المعاصرة، الـتراث/ الحداثة... إلخ وهى الذهنية التى انعكست فى إعادة تدوير قضايا الحجاب والخلافة والنص الديـنى فـى تسعينيات القرن العشرين مع كم هائل من المصادرات وقضايا التكفير... إلخ مما يشير إلى حالة من عدم القدرة على الحسم أو البت فى أى قضية من هذه القضايا.

وبالنسـبة للقوى الفاعلة فى معادلة الحداثة، يلاحظ أن القوى العلمانية تتجه إلى التراث باستمرار للبحـث عـن القـيم الغربية من خلاله، والتأكيد على عقلانية المعتزلة أو ثورية الشيعة أو اشتراكية القـرامطة.. إلخ. ما هى إلا حالات من مئات الحالات التى أفرزتها الاجتهادات العلمانية فى التراث داخـل الخطاب الثقافى المعاصر وتتأكد هذه النتيجة لدى لويس عوض وسعيد العشماوى فى اعتمادها المطلق على الجبرتى فى النظر لأحداث الحملة الفرنسية.

وعلـى العكـس مـن ذلك هناك ولع خفى بالغرب يسود القوى الإسلامية يظهر فى العديد من الحـالات مـثل التفسـير العلمى للقرآن، والاحتفاء بأى مفكر أو مستشرق غربى يقول كلمة حق فى الإسـلام والاحـتفاء بإسلام جارودى مثال صارخ على ذلك، ويظهر ذلك بوضوح فى اعتماد جلال كشـك وليلى عنان ومصطفى عبد الغنى على مصادر غربية على نمط وشهد شاهد من أهلها، وهى إشـكالية تثـير شـرعية الوجود للتيارين داخل المجتمع المصرى والعربى، فالمجتمع العربى مُحمل بـزخم تـاريخى وتراثى ما زال فاعلاً فى النفوس حتى الآن ويحلم باللحاق بالآخر الغربى المتفوق،

فالعلمـــانى يؤكد على تاريخه وتراثه عبر البحث عن الغرب فى التراث، وأحياناً على إيمانه وإسلامه عــندما يصطدم بالقوى الرجعية، والإسلامى يؤكد على العصرية من خلال اعتراف الآخر المتقدم به فيما يشبه وعياً مقلوباً يسود الذهنية العربية مؤخراً.

وهـــو ما أثر فى النهاية على موقف المثقف الفرد فى انتقالاته المتعددة بين تيارات فكرية متباينة حســب تـــأرجح معادلـــة الحداثـــة لصالح الذات مرة أو لصالح الآخر مرات عديدة، وربما ينسحب التـــناقض علـــى المثقف الواحد عبر مراحل قصيرة بغض النظر عن حقائق التاريخ نتيجة لاستدعاء التراث بما يحتويه من زخم تاريخى ليؤلف المثقف تمشياً مع انفعالات الناس فيرى أن أخصب فترات تاريخـــنا هى الفترة السابقة على الحملة (حالة مصطفى عبد الغنى) ثم يكتب للخواص أن مصر كانت فارغـــة من أية نهضة قبل هذه الحملة، دون النظر إلى النهضة وهل تحققت بالفعل، وهل استطاعت أن تنقل هؤلاء العوام نقلات كيفية يستطيعون من خلالها أن يتقدموا إلى الأمام، وأين دور المثقف فى النهوض بهؤلاء العوام؟*

الهــوامــش

(١) السـيد يـس: الفكـر العـربى والزمن، أين نحن من نهضة مطلع القرن، مجلة عالم الفكر، المجلد السادس والعشرون، يناير- يونيو، الكويت ١٩٩٨، ص٤٢٥.

(٢) بيـتر جـران: الجـذور الإسلامية للرأسمالية، مصر ١٧٦٠-١٨٤٠، ترجمة محروس سليمان، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، القاهرة ط١ ١٩٩٣.

(٣) صلاح عيسى: الثورة العرابية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط١ ١٩٧٢، ص٤١.

(٤) طارق البشرى: المسلمون والأقباط فى إطار الجماعة الوطنية ، دار الشروق القاهرة ١٩٨٨، ص١١.

(٥) السيد يس: مرجع سابق، ص٤٢٦.

(٦) مسـعود ضـاهر: النهضة العربية والنهضة اليابانية، تشابه المقدمات واختلاف النتائج، عالم المعرفة الكويت ١٩٩٩.

(٧) طارق البشرى: مرجع سابق ص١١.

(٨) محمد جلال كشك: ودخلت الخيل الأزهر ص١٢١ القاهرة ١٩٧١، الهيئة العامة للكتاب.

(٩) لويس عوض: تاريخ الفكر المصرى الحديث جـ٢ ، دار الهلال، القاهرة ٢٠٠١ ص١٠.

(١٠) نفسه، ص ٩

*يعـدد لويس عوض دوائر اهتمام الباحثين بتاريخ مصر الحديث فى أعقاب ١٩٦٧ مثل أبحاث: محمد أنيس عن حـريق القاهـرة، وكـتاب صلاح عيسى عن الثورة العرابية، وكتاب فتحى رضوان عن أعلام فترة ما بين الحربين العالميتين.. إلخ (المرجع السابق ص١٠).

(١١) عـبد الله شـلبى: الديـن والصراع الاجتماعى فى مصر (١٩٧٠-١٩٨٥) كتاب الأهالى رقم ٦٧ القاهرة ٢٠٠٠، ص٣٣.

(١٢) نبيل عبد الفتاح: المصحف والسيف مدبولى، القاهرة ١٩٨٤، ص٤٠.

(١٣) صادق جلال العظم: نقد الفكر الدينى، دار الطليعة، بيروت ط٨ ١٩٩٧، ص٩٧.

(١٤) محمد عابد الجابرى: إشكاليات الفكر العربى، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ١٩٩٤، ص١٣٣.

(١٥) السـيد يوسـف: الإخوان المسلمون وجذور التطرف والإرهاب فى مصر، الهيئة العامة المصرية للكتاب، القاهرة ١٩٩٩، ص٥١.

*تعتـبر أعمـال خليل عبد الكريم مثل "محمد والصحابة" و "الصحابة والصحابة" و"الصحابة والمجتمع" نصوصا تـدور فـى هـذا الإطار بامتياز، فالكاتب طوال هذه الأعمال يعتبر دخول العرب إلى مصر غزوا وليس فتحا، بالإضافة إلى نقده الشديد للعنصر العربى حضاريا وثقافيا.

*مـــثال علـــى ذلك الجدل الذى ثار بين قاسم عبده قاسم ومحمد حسين يونس حول هذه المسألة فى مجلة وجهات نظر- العددان ١٤، ١٥، السنة الثانية، دار الشروق، القاهرة ٢٠٠٠.

(١٦) جلال أمين: نحو تفسير جديد لأزمة الاقتصاد والمجتمع فى مصر، مدبولى، القاهرة ١٩٨٩، ص١٤٥.

(١٧) ولـــيد عـــبد الناصـــر: الصدام بين عبد الناصر والشيوعيين رؤية جديدة، مجلة أحوال مصرية، العدد١٢، القاهرة ٢٠٠١، ص١٣٣.

*يؤكد هذه النظرية العديد من الممارسات فى هذا المجال مثل:

-عبد الباسط عبد المعطى "المحرر" الطبقات الاجتماعية ومستقبل مصر، دار ميريت القاهرة ط١ ٢٠٠٢.

-سامية سعيد إمام: من يملك مصر؟ دار مصر المحروسة، القاهرة ط٣، ٢٠٠٣.

(١٨) أحمـــد بهاء الدين: دور الاستعمار فى التخلف الحضارى، مجلد أزمة التطور الحضارى فى الوطن العربى الكويت، ص١٥٨.

(١٩) حلـــيم بـــركات: المجـــتمع العربى المعاصر، بحث استطلاعى اجتماعى، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط٦، ١٩٩٨، ص٣٩٨.

(٢٠) محمـــد كـــامل ضـــاهر: الصراع بين التيارين الدينى والعلمانى فى الفكر العربى الحديث والمعاصر، دار البيرونى، بيروت، ط١، ١٩٩٤ ، ص٣٩.

(٢١) المرجع السابق ص١١

(٢٢) أودنـــيس: الثابت والمتحول، بحث فى الإبداع والاتباع عند العرب جـ٤، دار الساقى، بيروت ط٧ ١٩٩٤ ص٤٦.

(٢٣) المرجع السابق ص٤٧

(٢٤) نفسه ص٢٩

(٢٥) ماهر الشريف: رهانات النهضة فى الفكر العربى، دار المدى، دمشق، ٢٠٠٠، ص١٩.

(٢٦)المرجع السابق ص٣٥

(٢٧) ألبرت حورانى: الفكر العربى فى عصر النهضة ١٧٩٨-١٩٣٩، ترجمة كريم عزقول، جار نوفل، بيروت ١٩٩٧ ص٥٣

(٢٨) المرجع السابق ص٦٠.

(٢٩) محمـــد عابد الجابرى: المشروع النهضوى العربى، مراجعة نقدية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ط١ ١٩٩٦ ص٢٠.

(٣٠) ماهر الشريف: مرجع سابق ص٣٨ وأيضا ألبرت حورانى مرجع سابق ص٥٢

(٣١) حليم بركات: مرجع سابق ص٤١٠

(٣٢) ألبرت حوراني: مرجع سابق

(٣٣) محمـد جابر الأنصاري: الفكر العربي وصراع الأضداد، المؤسسة العربية الحديثة للدراسات والنشر ط١ بيروت ١٩٩٦ ص٧٢.

(٣٤) علـي المحافظـة: الاتجاهات الفكرية عند العرب في عصر النهضة، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت ط٥ ١٩٨٧ ص١١.

(٣٥) لويس عوض: تاريخ الفكر المصري الحديث، الخلفية التاريخية، دار الهلال، القاهرة ١٩٩٤.

(٣٦) نفسه ص١٩

(٣٧) نفسه ص٢٠

(٣٨) نفسه ص٢٠ إلى ص٣٨

(٣٩) نفسه ص٤٤

(٤٠) نفسه ص٥

(٤١) نفسه ص٤

(٤٢) نفسه ص٥٥

(٤٣) نفسه ص٧٣

(٤٤) نفسه ص٧٥

(٤٥) نفسه ص١٠٨

(٤٦) نفسه ص١٠٩

(٤٧) نفسه ص٥٥

(٤٨) نفسه ص٤٧

(٤٩) نفسه ص١٩٥

(٥٠) نفسه ص١٧٦

(٥١) نفسه ص١٩٠

(٥٢) نفسه ص٨١

(٥٣) نفسه ص١٢٦

(٥٤) نفسه ص١٢٧

(٥٥) نفسه ص١٧٦

(٥٦) محمد سعيد العشماوي: مصر والحملة الفرنسية، الهيئة العامة للكتاب القاهرة ١٩٩٩.

(٥٧) المرجع السابق ص٣٤

(٥٨) نفسه ص٤١

(٥٩) نفسه ص٥٥

(٦٠) نفسه ص٥٥

*الأقواس الداخلية موجودة فى الأصل.

(٦١) نفسه ص٥٦ إلى ص٦٣

(٦٢) نفسه ص٧٢

(٦٣) نفسه ص٧٣

(٦٤) نفسه ص٧٢

(٦٥) نفسه ص٧٢

*الأقواس الداخلية موجودة فى الأصل.

(٦٦) نفسه ص٨٣

(٦٧) نفسه ص٦٣

(٦٨) نفسه ص ٦٣

(٦٩)نفسه ص١٢٣-١٤٢

(٧٠)طارق البشرى: المسلمون والأقباط فى إطار الجماعة الوطنية مرجع سابق ص١١

(٧١)لويس عوض: مرجع سابق ص ١٢٦

(٧٢)المرجع ص١٥٦

(٧٣)نفسه ص١٣٢ إلى ص١٣٨

(٧٤)سعيد العشماوى: مصر والحملة الفرنسية، مرجع سابق ص١٩٢ إلى ١٩٥

*يعتقد الباحث وانطلاقا من سيناريو تشاؤمى أن الدين مازال يشكل الرابطة القومية لأغلبية المصريين وأن هناك أغلبـية تحلم بالوحدة الإسلامية القائمة على الدين حتى من البسطاء وعدم التفاف المثقف الباحث عن النهضة وحدودها وشروطها إلى أغلبية الناس يعبر عن حالة من المثاقفة لن تنتهى.

(٧٥)لويس عوض: مرجع سابق ص٦٨

(٧٦) محمد جلال كشك: ودخلت الخيل الأزهر، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة ١٩٧١

(٧٧) المرجع السابق ص١٢

(٧٨)المرجع السابق ص٢٣

(٧٩) محمد جلال كشك: مرجع سابق ص٤٥

(٨٠) نفسه ص٤٦

(٨١)نفسه ص٣٣ إلى ٥٣

(٨٢) نفسه ص٣٥

(٨٣)نفسه ص٨٨

(٨٤)نفسه ص٨٨

(٨٥)نفسه ص٩٢

(٨٦) نفسه ص٩٢

(٨٧)نفسه ص٢٤٩

(٨٨) نفسه ص٢٥٢

(٨٩) نفسه ٢٨٧

(٩٠)نفسه ص٢٢٠

(٩١) نفسه ص٢٢٠

(٩٢) نفسه ص٢٢١

(٩٣) نفسه ص٢٢١

(٩٤) نفسه ص٣٩٥

(٩٥) نفسه ص١٦٥

(٩٦) نفسه ص٣٩٣

(٩٧)نفسه ص٣

(٩٨) مصطفى عبد الغنى: حقيقة الغرب بين الحملة الفرنسية والحملة الأمريكية الهيئة العامة المصرية للكتاب، القاهرة ٢٠٠١ ص ٧.

(٩٩) المرجع السابق ص٢٢

(١٠٠)نفسه ص٢٧

(١٠١) نفسه ص٣٣

*يرى جلال كشك أيضا أن الحملة الفرنسية تدخل ضمن الحملات الصليبية وإن كانت تتسم (بقدرة هائلة على ألنفاق والدجل والادعاء) كشك: مرجع سابق ص١٤٥.

(١٠٢)مصطفى عبد الغنى: مرجع سابق ص٥٠

(١٠٣)نفسه ص٥٩

(١٠٤) نفسه ص٦٨

(١٠٥)نفسه ص١٢١

(١٠٦) نفسه ص١٢٢ إلى ١٢٩

(١٠٧) نفسه ص١٤٦

(١٠٨) نفسه ص١٥٢

(١٠٩) نفسه ص٤١

(١١٠) نفسه ص٤٢

(١١١) نفسه ص٩٣

(١١٢)نفسه ص٤٢

(١١٣) نفسه ص١٦

(١١٤) نفسه ص١٦

(١١٥) ليلى عنان: الحملة الفرنسية تنوير أم تزوير، دار الهلال القاهرة ١٩٩٨، ج١، ص١٨

(١١٦) المرجع السابق ص١٨

(١١٧) نفسه السابق ص١٨

(١١٨) ليلى عنان: الحملة الفرنسية فى محكمة التاريخ ج٢، دار الهلال القاهرة ١٩٩٨ ص١١

(١١٩) المرجع السابق ص٢٥٨

*الأقواس الداخلية موجودة فى الأصل.

(١٢٠) المرجع السابق ج١ ص١٦

(١٢١) نفسه ص١٧

(١٢٢) مسعود ضاهر النهضة العربية والنهضة اليابانية، تشابه المقدمات واختلاف النتائج، مرجع سابق

(١٢٣)رءوف عباس: المجتمع اليابانى فى عصر مايجى، دار النشر، ط١، القاهرة ٢٠٠٠

(١٢٤) مصطفى عبد الغنى: تيارات الفكر العربى المعاصر، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة ٢٠٠١

(١٢٥) المصدر السابق ص١١

(١٢٦) المصدر السابق ص٧١

*كـل الأعمـال السابق الإشارة إليها على مدى هذه الدراسة حولت الجبرتى إلى نص مفتوح قابل لكل التأويلات والاقتباس والحذف.. إلخ مما جعل ليلى عنان فى كتابها الحملة الفرنسية تنوير أم تزوير لا تعتمد عليه.

(١٢٧)المرجع السابق ص١٨.

*الأقواس الداخلية تشير إلى اقتباس المؤلف من الجبرتى.

*مع تجاوز نظريات مثل تحلق الجماهير ومداعبتها ودغدغة ما تؤمن به.

(١٢٨) أحمد عبد المعطى حجازى: نعم لفولتير لا لبونابرت، الهيئة العامة المصرية للكتاب، القاهرة ١٩٩٨

(١٢٩)المرجع السابق ص٤٥

(١٣٠)نفسه ص١١

(١٣١) نفسه ص٣٤

(١٣٢) نفسه ص٥٣

(١٣٣) نفسه ص١٣٢

(١٣٤)نفسه ص١٣٢

(١٣٥)نفسه ص١٤٧

(١٣٦) نفسه ص١٣١

(١٣٧) نفسه ص١٣٣

(١٣٨) المرجع السابق ص١٥٣

(١٣٩) بيــتر جــران: الجذور الإسلامية للرأسمالية، مصر ١٧٦٠-١٨٤٠، ترجمة محروس سليمان، دار الفكر للدراسات والنشر، القاهرة ١٩٩٣ ط١

(١٤٠)المرجع السابق ص١٥، ١٦

(١٤١) المرجع السابق ص ٥

*يرى أحد الباحثين أن دراسة بيتر جران من الدراسات النقدية الرائدة والتى كان (لها أثر واضح فى إعادة وفهم تاريخ مصر فى العصر العثمانى والعصور اللاحقة، إذ أصبح من الصعب الآن اعتبار الحقبة العثمانية حقبة من الظلام والخمول والتدهور على كافة الأصعدة).. خالد فهمى: كل رجال الباشا محمد على وجيشه وبناء مصر الحديثة، ترجمة شريف يونس، دار الشروق، القاهرة ط ١، ٢٠٠١، ص ٣٤.

(١٤٢) بيتر جران: مرجع سابق ص ٥.

(١٤٣) نفسه ص ٣٨.

(١٤٤) نفسه ض ٤٢.

(١٤٥) نفسه ص ٥٠.

(١٤٦) نفسه ص ٥٤.

(١٤٧)نفسه ص ٦٢

(١٤٨)نفسه ص ٦٢

(١٤٩)نفسه ص ٦٢

(١٥٠)نفسه ص ٤٩

(١٥١)نفسه ص ٤٤

(١٥٢) نفسه ص ٥٩

(١٥٣)نفسه ص ٤٦،٤٧

(١٥٤) نفسه ص ١٤٧

(١٥٥) نفسه ص ٣٦.

(١٥٦) نفسه ص ٢٢

(١٥٧) نفسه ص ٣٨ إلى ص ٦٦

(١٥٨) نفسه ص ٩

(١٥٩) نفسه ص ٧٩ إلى ص ١٠٤

(١٦٠) نفسه ص ٨٣.

(١٦١)نفسه ص ٨٥

(١٦٢) نفسه ص ٨٦

(١٦٣)نفسه ص ١١٧ إلى ص ١٣٨.

(١٦٤) نفسه ص ١١٩

(١٦٥) نفسه ص ١٢

(١٦٦)نفسه ص ١٤٩

(١٦٧) نفسه ص ١٤٩

(١٦٨) رؤوف عباس من تقديمه لكتاب نيلى حنا: ثقافة الطبقة الوسطى فى مصر العثمانية ق١٦م – ق ١٨ م، ترجمة رؤوف عباس، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة ط١ ٢٠٠٣، ص ١٤.

*الكتاب الأخير صادر باللغة الإنجليزية عن جامعة سيراكيوس بولاية نيويورك– أمريكا.

(١٦٩) نفسه ص ١٣.

(١٧٠) نفسه ص ٣٦.

(١٧١) نفسه ص ٤٤.

(١٧٢) نفسه ص ٣٧.

*وهى رؤية انشطارية حادة تعتقد بموت ثقافة الأطراف فى ظل هيمنة المركز وبالتالى يأتى تأزمها من وضعها للثقافة بين خيارين إما.. أو ولكى تثور على هذا الخيار التقليدى تبتدع لنفسها رؤية تقوم على فاعلية ثقافة الأطراف فى ظل هيمنة المركز، وتحتاج الرؤية التقليدية والرؤية المضادة لها إلى إعادة النظر، فمع إيمان الباحث بهيمنة المركز على الأطراف، فإن ثقافة هذه الأطراف لم تكن فاعلة وحتى الآن وخلال الحقبة التى تدرسها نيلى حنا. ومع ذلك فإن

ثقافتها لم تمت ولا يمكن الحديث عن موتها أو تصور ذلك. وهل يمكن الحديث عن موت الثقافة العربية فى ظل هيمنة أمريكية لم تشهدها من قبل؟ وفى المقابل هل يمكن الحديث عن أى فاعلية للثقافة العربية فى الوقت الحالى؟

(١٧٣) خالد فهمى: حين كانت مصر تبحث عن الحداثة، مقال منشور بمجلة وجهات نظر العدد الرابع والستون، القاهرة مايو ٢٠٠٤.

(١٧٤) نيلى حنا: مرجع سابق ص ٤٨.

(١٧٥)نفسه ص ٧١.

(١٧٦) نفسه ص ٧٩.

(١٧٧) نفسه ص ٦١.

(١٧٨)نفسه ص ٨٠.

*يعطى الباحث مجرد أمثلة من عشرات غيرها يمتلىء بها الكتاب حول الرغبة فى الخروج على النموذج الغربى مما يؤدى أحياناً إلى التناقض والوقوع فى أسر هذا النموذج وتبعيته مرة أخرى.

(١٧٩)نفسة ص ٤٥.

(١٨٠) نفسه ص ١٠٠.

(١٨١)نفسه ص ٩٤

(١٨٢) نفسه ص ١٣٣.

(١٨٣) نفسه ص ١٣٦.

(١٨٤)نفسه ص١٤٠.

(١٨٥) نفسه ص ١٤٢.

(١٨٦)نفسه ص ١٥٢.

(١٨٧) نفسه ص ١١٨.

(١٨٨) نفسه ص ١١٣.

(١٨٩)نفسه ص ١٨٨.

(١٩٠) نفسه ص من ١٨٨ إلى ص ٢٠٦.

(١٩١) نفسه ص ٣٤

(١٩٢) نفسه ص ٨٣.

(١٩٣) نفسه ص ٣٢.

(١٩٤) نفسه ص ٢٢١.

*المفارقة هنا أن النتيجة الوحيدة التى أحدثت تحولاً شبه حذرى من قبل ثقافة الطبقة الوسطى إزاء السلطة الحاكمة جـــاءت مـــن قبل علماء الأزهر التى تنتقد المؤلفة ثقافتهم، حيث استطاعوا بقيادة عمر مكرم تثبيت محمد على فى حكم مصر. ويرى البعض أن هذه الخطوة جاءت نتيجة التأثر بالحملة الفرنسية وأفكارها فى مصر.

(١٩٥) نفسه ص ٧٢.

(١٩٦) نفسه ص ٩٤.

(١٩٧)نفسه ص ٧٣.

*والســـؤال مـــاذا كان يحدث لو استمر نظام الكتاتيب معمولاً به إلى يومنا هذا فى القاهرة والمدن الكبرى؟ وتأتى تلك النظرة من أستاذة تاريخ قاهرية تُدرس فى الجامعة الأمريكية بالقاهرة وتكتب مؤلفاتها باللغة الإنجليزية، وفى عـــام ١٩٨٠ دخـــل الباحث إلى كُتاب فى مدينة المحلة الكبرى بزخمها العمالى والثقافى. وعلى الرغم من تطور الكُـــتاب كثيراً عن الصورة الهزلية التى قدمها طه حسين فى (الأيام) فإن المواد التعليمية فى الكُتاب اقتصرت فى عـــام ١٩٨٠ على حفظ قصار السور القرآنية ومبادىء اللغة العربية والعقاب كان يتم عبر الفلقة أو الضرب على الأيدى بخشبة مملوءة بالمسامير.

*يلاحـــظ انطلاق نيلى حنا من مقولات غربية واعتماد الدراسة فى معظمها وفى أفكارها الأساسية على المصادر الغربية.

(١٩٨)يمكن الرجوع بخصوص هذه النقطة إلى:

جـــلال أمين: عصر التشهير بالعرب والمسلمين نحن والعالم بعج ١١ سبتمبر ٢٠٠١، دار الشروق، القاهرة ط١ ٢٠٠٤.

*عام ١٧٩٨ ميلادية وهو عام قدوم الحملة الفرنسية إلى مصر.

(١٩٩) عبد الرحمن الجبرتى: عجائب الآثار فى التراجم والأخبار، الهيئة العامة المصرية للكتاب، ص ٥، القاهرة ٢٠٠٣.

(٢٠٠) جاك دريدا: ما الذى حدث فى حدث ١١ سبتمبر؟ ترجمة صفاء فتحى، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة ط١ ٢٠٠٣، ص ٧٠.

*يقدر أحد الباحثين عدد الندوات والمؤتمرات التى عقدت لبحث ظاهرة العولمة بـــ (١٥٠٠) ندوة ومؤتمر: نبيل علـــى، الثقافة العربية وعصر المعلومات، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطنى للثقافة والعلوم والآداب، الكويت يناير ٢٠٠١، ص ٢٦.

(٢٠١) السيد يسن: العولمة والطريق الثالث، الهيئة العامة المصرية للكتاب، القاهرة ١٩٩٩.

(٢٠٢) جلال أمين: العولمة، دار المعارف ط٢ ١٩٩٨، ص ٩.

(٢٠٣) عادل حسين: العولمة وصراعنا مع الغرب، ضمن كتاب الإسلام والعولمة، الدار القومية العربية، القاهرة ١٩٩٩، ص ٤٠.

(٢٠٤)ولـيد عبد الناصر: التيارات الإسلامية فى مصر ومواقفها تجاه الخارج من النكسة إلى المنصة (١٩٦٧-١٩٨١)، دار الشروق، القاهرة ٢٠٠١، ص ٧٥.

(٢٠٥)غالى شكرى: فى البحث عن علمانية جديدة، الهيئة العامة المصرية للكتاب،القاهرة ١٩٩٢، ص ١٥٣.

(٢٠٦) محمد عابد الجابرى: قضايا فى الفكر العربى المعاصر، مركز دراسات الوحدة العربية بيروت ط١، سنة ١٩٩٧، ص ١٠٣.

(٢٠٧) برتـران بادى:- الدولتان، السلطة والمجتمع فى الغرب وفى بلاد الإسلام، ترجمة لطيف فرج، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع القاهرة- باريس ط١ ١٩٩٢، ص ٨.

(٢٠٨) نفس المصدر ص ٨.

(٢٠٩) نفس المصدر ص ٨.

(٢١٠) المرجع السابق، ص ٣٧.

(٢١١)بـرنارد لويس:- أين الخطأ؟ التأثير الغربى واستجابة المسلمين، ترجمة محمد عنانى، دار سطور، القاهرة ط١ ٢٠٠٣، ص ١٥٣.

(٢١٢) رؤوف عباس من مقدمة الكتاب السابق ص ٩.

(٢١٣) المرجع السابق ص ٧ إلى ص ١٠.

(٢١٤) المرجع نفسه ص ٩٨.

(٢١٥) نفسه ص ٢٠٢.

(٢١٦) نفسه ص ١١٢.

(٢١٧) المرجع السابق، ص ٢٥٠.

(٢١٨) حسـن نافعة: المثقف العربى والأمير الأمريكى، فؤاد عجمى نموذجاً من خلال مناقشة حسن نافعة لكتاب العراق ومستقبل العرب لفؤاد عجمى، مقال منشور بمجلة وجهات نظر العدد الخمسون، القاهرة مارس ٢٠٠٣.

(٢١٩)المرجع السابق.

(٢٢٠)فهمى هويدى: المفترون، خطاب التطرف العلمانى فى الميزان، دار الشروق ط٢، ١٩٩٩، ص ٢٤٧.

(٢٢١)طارق البشرى: الملامح العامة للفكر السياسى الإسلامى فى التاريخ المعاصر ، دار الشروق، القاهرة ط١، ١٩٩٦، ص ٤٤.

(٢٢٢) جلال أمين: التنوير الزائف، دار المعارف، القاهرة ١٩٩٩، ص ٤٧.

(٢٢٣) المرجع السابق ص ٥١.

(٢٢٤) محمد سليم العوا: الحق فى التعبير، دار الشروق، القاهرة ١٩٩٨، ص ٢٧-٣١.

(٢٢٥) محمد سليم العوا: فى النظام السياسى للدولة الإسلامية، دار الشروق، القاهرة ١٩٨٩، ص ١٢٦.

(٢٢٦)فهمى هويدى: إحقاق الحق، دار الشروق، القاهرة ١٩٩٤، ص ٧٣.

(٢٢٧)فهمى هويدى، المفترون، مصدر سابق ص ١٤١.

لمزيد من التفاصيل حول آراء من يسمون بالإسلاميين المعتدلين أو المستقلين يمكن الرجوع إلى كتاب محمد حافظ دياب: "الإسلاميون المستقلون، الهوية والسؤال"، دار ميريت، القاهرة ط١ ٢٠٠١.

وكذلك تقرير الحالة الدينية، الجزء الثانى، مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام، القاهرة ١٩٩٨

(٢٢٨)سيد قطب:- معالم فى الطريق، دار الشروق، القاهرة سنة ١٩٩٣، ص "١٧".

*يشير عدد طبعات الكتاب "١٧" طبعة حتى سنة ١٩٩٣ وهى الطبعات الشرعية فقط كما تذكر دار الشروق فى مفتتح الكتاب مدى تأثير هذا الكتاب وأفكاره بالنسبة للتيار الإسلامى بصفة خاصة والباحثين والمثقفين بصفة عامة من خلال تبنى هذه الأفكار أو تحليلها ونقدها من ناحية أخرى.

(٢٢٩) المرجع السابق ص ١١٦.

(٢٣٠) محمد قطب:- جاهلية القرن العشرين، دار الشروق، القاهرة ١٩٨٩، ص ٢٥ إلى ٢٧.

(٢٣١)المرجع السابق ص ٣٣.

(٢٣٢) صادق جلال العظمة: الأصولية الإسلامية، ترجمة عاطف أحمد، مركز الدراسات والمعلومات القانونية لحقوق الإنسان، القاهرة ١٩٩٧ م، ص ٣٠.

(٢٣٣) هالة مصطفى:- الدولة والحركات الإسلامية المعارضة بين المهادنة والعنف، دار المحروسة، القاهرة ١٩٩٦، ٢٥٢-٢٦٦.

(٢٣٤) جريدة القاهرة: أعداد شهر نوفمبر ٢٠٠٣

(٢٣٥) نبيل عبد الفتاح: الوجه والقناع الحركة الإسلامية والعنف والتطبيع، دار سيشات، القاهرة ط١ ١٩٩٥، ص ٣٨.

(٢٣٦)عبد الرحيم على: المخاطرة فى صفقة الحكومة وجماعات العنف، ميريت للنشر، القاهرة ط١ ٢٠٠٠.

(٢٣٧)المرجع السابق ص ٢٢.

*شهدت أعوام ١٩٩٥،٩٤،٩٣،٩٢ قيام الهيئة العامة المصرية للكتاب بطرح سلسلتين فكريتين لمواجهة أفكار التطرف الأولى بعنوان المواجهة وقدمت أعمالاً تقوم بنقد أفكار هذه الجماعات بصورة مباشرة، والثانية بعنوان التنوير وقدمت أعمال سلامة موسى والكواكبى وقاسم أمين...إلخ.

(٢٣٨) هويدا عدلى: التسامح السياسى، المقومات الثقافية للمجتمع المدنى فى مصر، مركز القاهرة لحقوق الإنسان، القاهرة ٢٠٠٠، ص ١٩٢.

(٢٣٩) عاصم الدسوقى: الخوف من المطبعة، مقال منشو بمجلة إبداع، القاهرة يونية ١٩٩٩.

(٢٤٠)طلعت الشايب: الفتنة نائمة لكى ......، مقال بمجلة أدب ونقد، القاهرة مارس ٢٠٠١.

(٢٤١) عـبد العزيز حمودة: المرايا المقعرة، نحو نظرية نقدية عربية، سلسلة عالم المعرفة، الكويت ٢٠٠١، ص ٢٠.

(٢٤٢) حسن حنفى: الدين والتنمية القومية، دار مدبولى، القاهرة ١٩٨٩، ص ١٢.

(٢٤٣) تقريـر الحالـة الدينـية ص٢، مركـز الدراسات السياسية والاستراتيجية، الأهرام، القاهرة ١٩٩٨، ص ٥٩،٥٨.

(٢٤٤) فـتحى سـيد فـرج: الثقافة الوافدة مع العمالة العائدة، دراسة منشورة فى كتاب قراءة فى أحوال الوطن، تحرير حمد أو كليلة، مطبوعات الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة ١٩٩٩.

(٢٤٥) محمود عبد الفضيل: التشكيلات الاجتماعية والتكوينات الطبقية فى الوطن العربى، مركز دراسات الوحدة العربية بيروت ط١، ١٩٨٨، ص ١٦٨.

(٢٤٦) علاء.قاعود: نحو إصلاح علوم الدين، مركز القاهرة لحقوق الإنسان،القاهرة ١٩٩٩، ص ٩٢-١٠٢.

(٢٤٧) تقرير الحالة الدينية مرجع سابق ص ٣٩ إلى ٤١.

*علـى الـرغم مـن اشتغال نصر أبو زيد على قضية التأويل عبر المناهج الألسنية الحديثة (انظر مفهوم النص دراسـة فى علوم القرآن، المركز الثقافى العربى، الدار البيضاء ط ١٩٩٨) إلا أن الدفاع الإعلامى عنه أو حتى دفاع هيئة المحامين التى قامت بالدفاع عنه أمام المحكمة لم تتطرق إلى التأكيد على حرية التعبير أو البحث العلمى مهما كان مداهـا واقتصـر الدفاع على تأكيد إسلام الرجل وسماحة الإسلام واحتواء التراث الإسلامى على حالات شطط قامت نصـر أبو زيد (مما يؤكد الإدانة الضمنية) والاعتماد على تخريجات فقهية تقليدية للدفاع عنه فالمثقف عندما يدافع عن إسلامه بشتى السبل يؤكد ضمناً خروجه عنه أولا، وعندما يتجه إلى التراث لتدعيم حججه يؤهل المجتمع لسيادة الذهنية التراثية والتى لا تقبل فى أشد حالاتها تسامحاً وجود اجتهاد خارج الفضاءات الدينية المختلفة لمزيد من التفاصيل:

(انظـر مجلة القاهرة، عدد خاص عن نصر أبو زيد، الهيئة العامة المصرية للكتاب، القاهرة ١٩٩٥، كذلك نصر حامد أبو زيد (جمع وتقديم):- القول المفيد فى قضية أبو زيد، مجموعة مقالات للمدافعين عنه، مكتبة مدبولى، القاهرة ط١ ١٩٩٦.

(٢٤٨) رفعت السعيد/ التيارات السياسية فى مصر، فصل عن التأسلم السياسى وروافده، شركة الأمل، القاهرة ص ١ ٢٠٠١، كذلك العلمانية بين الإسلام والتأسلم كتاب الأهالى رقم ٦٥، القاهرة ٢٠٠٠.

(٢٤٩) على حرب: الإفتاء الأصولية والشعائر التقدمية، مصائر المشروع الثقافى العربى، المركز الثقافى العربى، الدار البيضاء ط١ ٢٠٠١، ص ١٩٠.

(٢٥٠) جاك دريدا: ما الذى حدث فى أحداث ١١ سبتمبر؟ مرجع سابق، ص ١٠٥.

(٢٥١) المرجع السابق ص ١١٩.

(٢٥٢) السـيد يسن: الحرب الكونية الثالثة عاصفة سبتمبر والسلام العالمى، الهيئة العامة المصرية للكتاب القاهرة ٢٠٠٣.

(٢٥٣) ديفـيد بلانكـس: رؤية أمريكى له عائلة عربية، أمريكيون فقط دراسة منشورة بمجلة وجهات نظر العدد الواحد والخمسون، القاهرة إبريل ٢٠٠٣.

(٢٥٤) المصدر نفسه.

*أنظر على سبيل المثال: هنرى لورانس:- الأصول الفكرية للحملة الفرنسية على مصر، الاستشراق المتأسلم فى فرنسا ١٦٩٨-١٧٩٨، ترجمة بشير السباعى، دار شرقيات، القاهرة ط١ ١٩٩٩.

(٢٥٥)حسن حنفى:- هموم الفكر والوطن ط١، دار المعرفة الجامعية، القاهرة ١٩٩٧، ص ٤٦٧.

(٢٥٦) محمـد المسيلى:- الاندمـاج أو الأنعتاق- أوروبا والإمبراطورية الأمريكية الجديدة، مقال منشور بمجلة وجهات نظر، العدد الخمسون، القاهرة ٢٠٠٣.

(٢٥٧) حسن حنفى: فيشته.. نيلسون المقاومة، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة ٢٠٠٢ ، ص ٤٩٠.

(٢٥٨)عبد الرحمن الجبرتى: مرجع سابق ص ٤.

(٢٥٩)المرجع السابق ص ٤

(٢٦٠) نفسه ص ٥.

(٢٦١)طاهـر عبد الحكيم: الشخصية الوطنية المصرية، قراءة جديدة لتاريخ مصر، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، القاهرة ط١ ١٩٨٦، ص ١١٢-١١٣.

*يلاحـظ احتفال العراقيون بعيد الفطر الأول بعد الاحتلال فى يومين مختلفين يوم للشيعة ويوم للسنة فى إشارة هامة إلى ما يعانيه هذا البلد من تفتت ثقافى ومذهبى.

(٢٦٢) عبد الرحمن الجبرتى/ مرجع سابق ص ٢.

(٢٦٣) طالـب الـبغدادى: مـن أحـرق بغـداد؟ التراث... الذاكرة... التاريخ مجلة وجهات نظر، العدد الثانى والخمسون، القاهرة مايو ٢٠٠٣.

(٢٦٤) مصطفى عبد الغنى: حقيقة الغرب بين الحملة الفرنسية والحملة الأمريكية، مصدر سابق، ص ٩٣.

(٢٦٥) جاك دريدا: ما الذى حدث فى حدث ١١ سبتمبر؟ مرجع سابق، ص ١١٩.

(٢٦٦) لـيلى إبراهيم أبو المجد: السبى البابلى، دراسة تاريخية فى استراتيجيات الغزو، مجلة وجهات نظر العدد الثالث والخمسون، القاهرة يونيو ٢٠٠٣.

(٢٦٧)تقرير لنرمين محب، منشور بجريدة الأسبوع القاهرية ٣١ مارس ٢٠٠٣.

(٢٦٨) المرجع السابق.

(٢٦٩) نفسه.

(٢٧٠)نفسه.

(٢٧١)عبد الرحمن الجبرتى: مرجع سابق ص ١١.

(٢٧٢)جريدة الأهرام، الصفحة الأولى بتاريخ ٢٠/٣/٢٠٠٣.

(٢٧٣)سمير محمود والى: الأسلحة الكهرومغناطيسية.. الدمار دون ألم، مجلة وجهات نظر، العدد الخمسون، القاهرة مارس ٢٠٠٣.

(٢٧٤) عبد الرحمن الجبرتى، مرجع سابق، ص ٦٠.

(٢٧٥) طارق البشرى: العرب فى مواجهة العدوان، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ٢٠٠٣، ص ٢٥٥.

(٢٧٦) مأمون فندى: ضحايا الحداثة، أمريكا والعرب بعد ١١سبتمبر ، الهيئة العامة المصرية للكتاب، القاهرة ٢٠٠٣، ص ٢٩٠.

(٢٧٧) المرجع السابق: ص ٢٩١.

(٢٧٨) حسن نافعة المثقف العربى والأمير الأمريكى، فؤاد عجمى نموذجاً، مجلة وجهات نظر، العدد الخمسون، القاهرة مارس ٢٠٠٣.

(٢٧٩)رضا هلال: الحلم المصرى، أى مصر نريدها، الهيئة العامة المصرية للكتاب، القاهرة ٢٠٠٢، ص ١٥٦،١٥٧.

(٢٨٠) تعليق حسن نافعة على فؤاد عجمى، مرجع سابق.

(٢٨١) رضا هلال:- مرجع سابق ص ١٧٣.

(٢٨٢) مأمون فندى: مرجع سابق ص ٢٩٤.

(٢٨٣)رضا هلال: مرجع سابق ص ٥٨.

(٢٨٤)المرجع السابق ص ٨٦

(٢٨٥) نفسه ص ١٣٣.

(٢٨٦) رضا هلال: الحرب الأمريكية العالمية، قيامة المحافظين الجدد واليمين الدينى، الهيئة العامة المصرية للكتاب، القاهرة ٢٠٠٣، ص ١٩٧،١٩٨،١٩٩.

*وهى حجج الإدارة الأمريكية وتكررت أيضاً فى الإعلام العربى.

(٢٨٧) الأهرام ٢٠ مارس ٢٠٠٣.

(٢٨٨) الأهرام ٢٠ مارس ٢٠٠٣.

(٢٨٩) الأهرام ٢١ مارس ٢٠٠٣.

(٢٩٠)الأهرام ٢١ مارس ٢٠٠٣.

*لا يمـــثل وضع تعبير مثل حرية العراق بين مزدوجتين أى استهجان من جانب الصحيفة إذ هو اسم العملية التى أطلقتها الولايات المتحدة على هذه الحرب كما أشارت الصحيفة.

(٢٩١) الأهرام ٢٦ مارس ٢٠٠٣.

(٢٩٢)الأهرام ٢٧ مارس ٢٠٠٣.

(٢٩٣) الـــتقـــريــــــر الاستراتيجى العربى ٢٠٠٢-٢٠٠٣، مؤسسة الأهرام، القاهرة ط١، يونيو ٢٠٠٣، ص ٩٦ إلى ١٠٠.

(٢٩٤)المرجع السابق ص ٩٨.

(٢٩٥) سمير رجب: خطوط فاصلة بعنوان، فوضى.. ما قبل الحرب! جريدة الجمهورية ٢٠ مارس ٢٠٠٣.

(٢٩٦) سمير رجب: المرجع السابق.

(٢٩٧) المرجع السابق.

(٢٩٨)إبراهيم نافع: حقائق: الأهرام ٢٢ مارس ٢٠٠٣.

(٢٩٩)الأهرام ٢٢ مارس ٢٠٠٣.

(٣٠٠) عبد الرحمن عقل: الناس والاقتصاد، عمود منشور بالاهرام ٢٠ مارس ٢٠٠٣.

(٣٠١) الأهرام ٢٢ مارس ٢٠٠٣

(٣٠٢) الأهرام ٢٠ مارس ٢٠٠٣.

(٣٠٣) تقرير مصطفى سليمان: وقائع المؤتمر الفضيحة حول العدوان على العراق، يا فضيلة الإمام لتقل خيراً أو لتصمت، جريدة الأسبوع القاهرية ١٤ أبريل ٢٠٠٣.

(٣٠٤) التقرير الاستراتيجى العربى، مرجع سابق ص ٩٧.

(٣٠٥) محمـــد عـــبد المـــنعم: مبارك فى معرض الكتاب، أسلوب خطاب واقعى لا يُشبع العنتريات، مجلة روز اليوسف القاهرية، ٢٥: ٣١ يناير ٢٠٠٣.

(٣٠٦) روز اليوسف ٢٤:٣٠ مايو ٢٠٠٣.

(٣٠٧) كرم جبر: من حق الناس أن يعرفوا الحقائق كاملة، فى احتفالية المجلة بحوار الرئيس مع مثقفى مصر فى معرض الكتاب، روز اليوسف ٢٥:٣١ يناير ٢٠٠٣.

(٣٠٨) وائل الإبراشى: مقال بنفس العنوان، المرجع السابق.

(٣٠٩)روز اليوسف : المرجع السابق.

(٣١٠) محمد عبد المنعم: افتتاحية المجلة، روز اليوسف ١٢:١٥ فبراير ٢٠٠٣.

(٣١١) كـــرم جـــبر: الإطاحـــة بصـــدام حسين هل هى البديل الوحيد لتجنب الحرب، مقال بمجلة روز اليوسف، المصدر السابق.

(٣١٢) روز اليوسف ٢٢:٢٨ مارس ٢٠٠٣.

(٣١٣)عبد الله كمال: المصدر السابق.

(٣١٤)روز اليوسف ١٢:١٨ أبريل ٢٠٠٣.

(٣١٥)المرجع السابق.

(٣١٦) محمد عبد المنعم: بعد النكبة والنكسة والكارثة غداً يوم القيام، ١٩:٢٥ أبريل ٢٠٠٣.

(٣١٧) كرم جبر واحد اثنين.. مصر فين؟ المرجع السابق.

(٣١٨) عبد الله كمال: أقلام تحلب الثور! المرجع السابق، ويقصد الكاتب بالثور الجيش المصرى.

(٣١٩)روز اليوسف ٢٤:٣٠ مايو ٢٠٠٣.

(٣٢٠) المرجع السابق

(٣٢١) حمـــادة حسين: حوار مع محسن لطفى السيد بعنوان: ثقافة الصحراء أنست المصريين مصريتهم، المرجع السابق.

(٣٢٢) علوانى مغيب: المصريون أمة الديمقراطية الدينية، المرجع السابق.

*دأبت المجلة على نشر صفحة مصريات للدكتور وسيم السيسى يتناول فيها ما يخص الشأن المصرى القطرى.

(٣٢٣) المرجع السابق

(٣٢٤) أنور الجندى: المعارك الأدبية، الأنجلو المصرية، القاهرة د.ت، ص ١٧.

(٣٢٥) خليل عبد الكريم: النص المؤسسى ومجتمعه ط١، دار مصر المحروسة، القاهرة ط١، ٢٠٠٢، ص ٢١٨.

(٣٢٦) سيد القمنى: شرعية العنف وخطابنا المراوغ، دراسة منشورة، بمجلة أدب ونقد العدد ٢٠١، مايو ٢٠٠٢

(٣٢٧) محمـــد حســـين مؤنـــس: بل أخذت عنوة وكان أهلها عبيداً، مقال منشور بمجلة وجهات نظر، العدد ١٥، القاهرة ٢٠٠٠.

(٣٢٨) جريدة العربى ٩ مارس ٢٠٠٣.

(٣٢٩) عبد الحليم قنديل: عمود لوجه الوطن العربى ٢ مارس ٢٠٠٣.

(٣٣٠) جريدة العربى ٢ مارس ٢٠٠٣.

(٣٣١) العربى ٢ مارس ٢٠٠٣.

*تتردد هذه الأفكار فى معظم المواد الصحفية فى العدد الواحد حيث كان يخصص العدد بأكمله للحرب المتوقعة.

(٣٣٢)أكرم القصاص عمود أول السطر العربى ٢ مارس ٢٠٠٣.

(٣٣٣) جريدة الأسبوع ٣ مارس ٢٠٠٣.

(٣٣٤) مصطفى بكرى: عمود بالعقل بعنوان "الفرصة الأخيرة" الأسبوع.

(٣٣٥) الأسبوع ٣ مارس ٢٠٠٣.

(٣٣٦) الأسبوع ١٠ مارس ٢٠٠٣.

(٣٣٧) الأسبوع ٣ مارس ٢٠٠٣.

(٣٣٨) العربى ١٦ مارس ٢٠٠٣.

(٣٣٩)الأسبوع ٣ مارس ٢٠٠٣.

(٣٤٠)المرجع السابق.

(٣٤١) جريدة العربى ٣٠ مارس ٢٠٠٣.

(٣٤٢) المرجع السابق

(٣٤٣) نفسه

(٣٤٤) الأسبوع ٢٤ مارس ٢٠٠٣.

(٣٤٥)المرجع السابق

(٣٤٦)المرجع السابق

(٣٤٧)الأسبوع ٣١ مارس ٢٠٠٣

(٣٤٨) المرجع السابق

(٣٤٩) العربى ٦ إبريل ٢٠٠٣.

(٣٥٠) العربى المرجع السابق.

(٣٥١)محمد عودة: العربى، المصدر السابق.

(٣٥٢) المرجع السابق.

(٣٥٣) الأسبوع ٢٨ أبريل ٢٠٠٣.

(٣٥٤) سيد نصار عمود قضايا عربية بعنوان حيثيات طرد الكويت، الأسبوع ٢١ أبريل ٢٠٠٣.

(٣٥٥)محمود بكرى: تقرير، الأسبوع ٢٨ أبريل ٢٠٠٣،.

(٣٥٦) الأسبوع ٢٤ مارس ٢٠٠٣.

*ويلاحظ توارى هذا الخطاب الآن فى مرحلة تفعيل المقاومة الحقيقية بعد انتهاء الغزو.

(٣٥٧)روز اليوسف : ٢٦ أبريل: ٢ مايو ٢٠٠٣.

(٣٥٨)المرجع السابق

(٣٥٩)الأسبوع ٢٤ مارس ٢٠٠٣.

(٣٦٠)مصطفى بكرى: بالفعل، المرجع السابق

(٣٦١) نفسه

(٣٦٢) نفسه

(٣٦٣) الأسبوع ٢٤ مارس ٢٠٠٣

(٣٦٤) المرجع السابق

*أعطـــى الباحـــث مجرد أمثلة حيث إن هناك موضوعات تراثية من الكثرة والتنوع والدلالات ما يجعلها تحتاج لدراسة منفردة.

(٣٦٥)قاســـم عـــبد قاسم: الفرنجة يقصفون بلد صلاح الدين، صلاح الدين الأيوبى هل صنع عصره، أم صنعه عصره؟!، مقال منشور بمجلة الهلال القاهرة أبريل ٢٠٠٣.

(٣٦٦)عطية القوصى: العراق من الحضارات القديمة حتى حضارة العصر العباسى مجلة الهلال مايو ٢٠٠٣.

(٣٦٧) المرجع السابق.

(٣٦٨) المرجع السابق

(٣٦٩) يوسف زيدان: سقوط بغداد مقال منشور بالهلال مايو ٢٠٠٣

(٣٧٠)فاروق عبد القادر: تراجيديا كربلاء مقال منشور بمجلة وجهات نظر العدد الثالث والخمسون يونيو ٢٠٠٣.

(٣٧١)الأهرام الاقتصادى ٢١ أبريل ٢٠٠٣.

(٣٧٢)جريدة العربى، ١٣ أبريل ٢٠٠٣.

(٣٧٣) العربى المرجع السابق.

(٣٧٤) محمد عبد الله بدر: فى تفسير لغز صدام، جريدة العربى المرجع السابق.

(٣٧٥) جريدة الأسبوع ١٤ أبريل ٢٠٠٣.

(٣٧٦) جريدة الأسبوع ٢١ أبريل ٢٠٠٣

(٣٧٧)مصطفى بكرى : جريدة الأسبوع ٢٨ أبريل ٢٠٠٣.

(٣٧٨) جريدة العربى ٢٣ مارس ٢٠٠٣.

(٣٧٩)جـــلال أميـــن: الإعلام والاعتداء على العراق، ثورة معلومات أم تلويث للمخ، مقال منشور بمجلة الهلال، مايو ٢٠٠٣.

(٣٨٠) الأسبوع ١٤ أبريل ٢٠٠٣

(٣٨١) الأسبوع ٢١ أبريل ٢٠٠٣.

(٣٨٢) جريدة العربى ١٣ أبريل ٢٠٠٣

(٣٨٣) صلاح قنصوة: آن الأوان للنزول من السندرة إلى المطبخ، مقال منشور بمجلة الهلال يوليو ٢٠٠٣.

(٣٨٤)صلاح قنصوة: المرجع السابق.

(٣٨٥)مراد وهبة: إشكالية الهوية الثقافية، الهلال، المرجع السابق.

(٣٨٦) جلال أمين: الأمريكيون ونظامنا التعليمى، الهلال المرجع السابق.

(٣٨٧) أحمد أبو زيد: أما لليأس العربى من نهاية؟!، الهلال المرجع السابق؟

(٣٨٨) أحمد يوسف أحمد: نهاية العروبة، مقال منشور بمجلة الهلال، عدد أغسطس ٢٠٠٣.

(٣٨٩)صلاح عيسى: الحداد يليق بالقوميين العرب، مقال منشور بجريدة القاهرة بتاريخ ٢٢ أبريل ٢٠٠٣.

(٣٩٠) نـور الدين بو مهرة: المؤسسات الصناعية والصدمة الثقافية، دراسة منشورة بمجلة قضايا فكرية، الكتاب التاسـع عشـر والعشرون بعنوان "الفكر العربى بين العولمة والحداثة وما بعد الحداثة، قضايا فكرية للنشر والتوزيع، القاهرة، أكتوبر ١٩٩٩.

(٣٩١)عبد الرحمن الجبرتى: مصدر سابق، الهيئة العامة المصرية للكتاب القاهرة ٢٠٠٣، ص ٦٩.

(٣٩٢) صلاح عيسى، الثورة العرابية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت ط١ ١٩٧٢، ص ١٤٤.

(٣٩٣)غالى شكرى: المثقفون والسلطة فى مصر، أخبار اليوم، القاهرة ١٩٩١، ص ٢٥.

(٣٩٤) تقريـر عـن التعذيـب فى مصر، حقائق وشهادات، مركز النديم للعلاج والتأهيل النفسى (لضحايا العنف القاهرة ٢٠٠٢.

*تولى الوفد الحكم فى الفترة من ١٩٣٦ إلى ١٩٥٢ مدة "٥٢" شهراً فقط (رول ماير: البحث عن الحداثة، ترجمة شريف يونس، ميريت للنشر، القاهرة ط١ ٢٠٠٠)، ص ٥٥.

(٣٩٥) رؤوف عـباس: جماعة النهضة القومية، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، القاهرة ط ١٩٨٦، ص ١١-٣٠.

(٣٩٦) محمـود محـيى الديـن: اشتراكية الدولة والنمو الاقتصادى، نقلاً عن رضا هلال: تحديث التخلف، سينا للنشر، القاهرة ط١ ١٩٩٣، ص ١١٩.

(٣٩٧)رفعت السعيد: تاريخ المنظمات اليسارية المصرية ١٩٤٠-١٩٥٠، دار الثقافة الجديدة ط١ القاهرة ١٩٦٧، ص ٢٣.

(٣٩٨) رول ماير:- مرجع سابق ص ٦١.

*قوبلت إجراءات عديدة شهدتها مصر مؤخراً بالسخرية اللاذعة من قبل الشارع المصرى كاتخاذ عيد الميلاد ٧ يـناير أجازه رسمية لكل المصريين وتردد وسؤال لماذا الآن بالذات؟ وكالإجراءات التى قامت بها السلطة إزاء قضايا المرأة مثل الخلع والختان.. ومحكمة الأسرة وهى إجراءات وإن بدت تحديثية إلا أنها قوبلت من جانب المواطنين بالشك والسـخرية، والمـتابع لصـحف المعارضة وتعليقها على مسألة توريث السلطة فى مصر سيجد إلى أى مدى تتفاعل ظـروف الداخل مع جدل الخارج، ما بين سلطة تستند إلى ميراث طويل من الاستبداد وتابعه تبعية شبه مطلقة للغرب، وقـوى أجنبـية تدعى الديموقراطية وتسعى إلى التغيير وهو ما يجعل مسألة التوريث هذه معلقة لم تقطع فيها السلطة برأى انتظاراً للرأى الغربى ومدى تفاعل العلاقة بينها وبين الخارج.

(٣٩٩)علـــى حـــرب: أصـــنام النظرية وأطياف الحريه، نقد بورد يو وتشومسكى، المركز الثقافى العربى، الدار البيضاء ط١ ٢٠٠١، ص ٢٧.

(٤٠٠)محـــيى الدين اللاذقانى: تأملات أولية فى ملامح النظام الثقافى العربى الجديد، جريدة الشرق الأوسط ١٤ فبراير ١٩٩٥.

*رأى حســن حــنفى فى تسعينيات القرن العشرين أن قضية نصر أبو زيد قد أخذت هذه الأبعاد المأساوية لأنها وصـــلت إلى الصحافة، وأن هذه القضايا لا يجب أن يتحدث فيها العوام ثم ردد قولاً تراثياً للإمام الغزالى "إلجام العوام عن علم الكلام" (حسن حنفى حوار الأجيال، دار قباء، القاهرة ١٩٩٨، ص ٤٣٣، وهو ما يثير إشكالية المثقف النخبوى ومدى قدرته على تنوير الجماهير ومواجهتها برأيه متحملاً النتائج كاملة ويعود بالزمن العربى إلى عصر الغزالى..!

قائمة مطبوعات

مركز البحوث العربية والأفريقية

١٩٨٧- ٢٠٠٤

١. فؤاد مرسى، مصير القطاع العام فى مصر، ١٩٨٧.
٢. لطيفة الزيات (تحرير)، المشكلة الطائفية فى مصر، ١٩٨٨.
٣. رشدى سعيد وآخرون، أزمة مياه النيل، ١٩٨٨.
٤. عواطف عبد الرحمن، المدرسة الاشتراكية فى الصحافة، ١٩٨٨.
٥. وداد مرقس، سكان مصر، ١٩٨٨.
٦. أبوسيف يوسف وآخرون، النظرية والممارسة فى فكر مهدى عامل :أعمال ندوة فكرية، ١٩٨٩.
٧. إبراهيم برعى، دليل قرارات المجلس الاقتصادى والاجتماعى العربى ١٩٥٣/ ١٩٨٩.
٨. إبراهيم العيسوى، المسار الاقتصادى فى مصر وسياسات الإصلاح، ١٩٩٠.
٩. إبراهيم بيضون وآخرون، ثقافة المقاومة ومواجهة الصهيونية أعمال ندوة لجنة الدفاع عن الثقافة القومية ١٩٩٠
١٠. أحمد عبد الله (تحرير)، انتخابات البرلمانية فى مصر، نشر مشترك مع دار سينا ١٩٩٠.
١١. حيدر إبراهيم، أزمة الإسلام السياسى، الجبهة الإسلامية القومية فى السودان، ١٩٩٠.
١٢. محمد عبيد غباش، من لايعرف شيئا فليكتب، خربشات رجل بلاد النفط، ١٩٩١.
١٣. ألفت الروبى، الموقف من القص فى تراثنا النقدى، ١٩٩١.
١٤. محمد علي دوس، حياة موارة في العمل السياسى العربى الأفريقي، ١٩٩١.
١٥. أحمد نبيل الهلالى وآخرون، اليسار المصرى وتحولات الدول الاشتراكية : أعمال ندوة عقدت بالمركز ١٩٩٢.
١٦. أمينة رشيد وآخرون، قضايا المجتمع المدنى فى ضوء فكر جرامشى (مع دار عيبال بدمشق)، ١٩٩٢.

١٧. سمير أمين،من نقد الدولة السوفيتية إلى الدولة الوطنية، ١٩٩٢.
١٨. المسألة الفلاحية والزراعية فى مصر:أعمال ندوة عقدت بالمركز، ١٩٩٢.
١٩. جويل بنين، زكارى أوكمان، العمال والحركة السياسية فى مصر ج،١ ترجمة أحمد صادق سعد، ١٩٩٢.
٢٠. إشـكاليات التكويـن الاجتماعى والفكريات الشعبية فى مصر: أعمال ندوة بالمركز نشر مع دار كنعان، ١٩٩٢.
٢١. أحمـد يوسف أحمد : منطق العمل الوطنى- حركة التحرر الوطنى الفلسطينية فى دراسـة مقارنـة مـع حركات التحرر الأفريقية بالتعاون مع مركز القدس للدراسات الإنمائية عمان، ١٩٩٢.
٢٢. ليلى عبد الوهاب، سوسيولوجية الجريمة عند المرأة، ١٩٩٢.
٢٣. أحمد محمد البدوى، لبن الأبنوس يازول ١٩٩٢.
٢٤. مركز دراسات المرأة الجديدة ومركز البحوث العربية، المرأة وتعليم الكبار، ١٩٩٢
٢٥. إدريس سعيد، عظام من خزف، ١٩٩٣.
٢٦. دارام جاى (تحرير)، صندوق النقد الدولى وبلدان الجنوب، ترجمة/ مبارك عثمان، نشر مع اتحاد المحامين العرب، ١٩٩٣.
٢٧. مايكل دراكوه (تحرير)، الأنهار الأفريقية وأزمة الجفاف، نشر بالتعاون مع منظمة البحوث الاجتماعية لشرق وجنوب أفريقيا ١٩٩٤.
٢٨. عادل شعبان وآخرون، الحركة العمالية فى معركة التحول، ١٩٩٤.
٢٩. نادية رمسيس فرح (تحرير) السكان والتنمية فى مصر نشر مع دار الأمين، ١٩٩٤
٣٠. آمال سعد زغلول، دور الحركة الشعبية فى حرب السويس، ١٩٩٤.
٣١. لجـنة الدفـاع عـن الثقافة القومية (دراسات ووثائق ١٩٧٩-١٩٩٤)(من مقاومة التطبيع إلى مواجهة الهيمنة) ١٩٩٤.
٣٢. على عبد القادر، برامج التكيف الهيكلى والفقر فى السودان، ١٩٩٤.
٣٣. حلمى شعراوى وعيسى شيفجى، حقوق الإنسان فى أفريقيا والوطن العربى،١٩٩٤.
٣٤. لطيفة الزيات (ترجمة وتعليق)، حول الفن، ١٩٩٤.
٣٥. جـودة عـبد الخـالق (تحريـر)، تطور الرأسمالية ومستقبل الاشتراكية فى مصر والوطن العربى : ندوة مهداة إلى فؤاد مرسى، ١٩٩٤.

٣٦. عبد الغفار شكر، التحالفات السياسية فى مصر ١٩٩٤.

٣٧. صادق رشيد، أفريقيا والتنمية المستعصية، ت/ مصطفى مجدى الجمال، ١٩٩٥.

٣٨. عبد الغفار أحمد، السودان بين العروبة والأفريقية، ١٩٩٥.

٣٩. بيترنيانجو، من تجارب الحركات الديمقراطية فى أفريقيا والوطن العربى، مع اتحاد المحامين العرب ترجمة حلمى شعراوى وآخرون، ١٩٩٥.

٤٠. سمير أمين (تحرير)، المجتمع المدنى والدولة فى الوطن العربى: حالة مصر، نشر مشترك مع دار مدبولى، ١٩٩٦.

٤١. سمير أمين (تحرير) المجتمع المدنى والدولة فى الوطن العربى : حالة لبنان، مشترك مع مدبولى ١٩٩٦.

٤٢. مصطفى كامل السيد (تحرير)، حقيقة التعددية السياسية فى مصر، نشر مشترك مع مدبولى ١٩٩٦.

٤٣. سيد البحراوى (تحرير)، لطيفة الزيات : الأدب والوطن، نشر مشترك مع دار المرأة العربية، ١٩٩٦.

٤٤. عبد الباسط عبد المعطى: بحوث الطفولة فى الوطن العربى، نشر مشترك مع المجلس العربى للطفولة والتنمية، ١٩٩٦.

٤٥. جويل بنين، زكارى لوكمان، العمال والحركة السياسية فى مصر الجزء الثانى، ترجمة إيمان حمدى، نشر مع دار الخدمات النقابية والعمالية.

٤٦. عبد الغفار شكر (تحرير)، الجمعيات الأهلية وأزمة التنمية الاقتصادية والاجتماعية فى مصر، نشر مشترك مع دار الأمين، ١٩٩٧.

٤٧. سمير أمين (تحرير)، المجتمع المدنى والدولة فى الوطن العربى : حالة المشرق العربى نشر مشترك مع دار مدبولى، ١٩٩٧.

٤٨. سمير أمين (تحرير)، المجتمع المدنى والدولة فى الوطن العربى : حالة المغرب العربى نشر مشترك مع دار مدبولى، ١٩٩٧.

٤٩. كمال مغيث (تحرير)، التعليم وتحديات الهوية القومية، نشر مشترك مع دار المحروسة، ١٩٩٨.

٥٠. عبد الغفار شكر، اليسار العربى وقضايا المستقبل ١٩٩٨. نشر مشترك مع دار مدبولى، ١٩٩٨.

٥١. عاصم الدسوقى (تحرير)، عمال وطلاب فى الحركة الوطنية المصرية. نشر مشترك مع دار المحروسة، ١٩٩٨.
٥٢. محمد أبو مندور وآخرون، الإفقار فى بر مصر، نشر مشترك مع دار الأهالى، ١٩٩٨.
٥٣. عبد الغفار أحمد (تحرير)، إدارة الندرة، ترجمة صلاح أبو نار وآخرون،١٩٩٨.
٥٤. لايف مانجر وآخرون، البقاء مع العسر، ترجمة صلاح أبو نار- مجدى النعيم، ١٩٩٨.
٥٥. نجاتى عبد المجيد وآخرون، سلسلة كتب شهادات ورؤى:من تاريخ الحركة الشيوعية المصرية حتى عام ١٩٦٥: الجزء الأول بالتعاون مع لجنة توثيق تاريخ الحركة الشيوعية المصرية حتى عام ١٩٦٥، ١٩٩٨.
٥٦. لايف مانجر، لفوفة النوبة، ترجمة مصطفي مجدى، ١٩٩٩.
٥٧. أمينة رشيد (تحرير): التبعية الثقافية : مفاهيم وأبعاد، نشر مشترك مع دار الأمين، ١٩٩٩.
٥٨. محمود عودة، (إشراف)، الأسر المعيشية فى الريف المصرى، نشر مشترك مع جامعة عين شمس، ١٩٩٩.
٥٩. محمد محيى الدين، (إشراف)، نساء الغزل والنسيج : الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية، ١٩٩٩.
٦٠. عبد الحميد حواس وآخرون، المأثور الشعبى فى الوطن العربى، نشر مشترك مع المنظمة العربية للتربية وللثقافة وللعلوم، ١٩٩٩.
٦١. عبد الباسط عبد المعطى(تحرير)، العولمة والتحولات المجتمعية فى الوطن العربى، نشر مشترك مع دار مدبولى، ١٩٩٩.
٦٢. عزة خليل (إعداد)، خريطة سياسات وخدمات الطفولة فى مصر، نشر مشترك مع المركز القومى للثقافة والطفل، ١٩٩٩.
٦٣. يوسف درويش وآخرون، سلسلة كتب شهادات ورؤى: من تاريخ الحركة الشيوعية المصرية حتى عام ١٩٦٥: الجزء الثانى بالتعاون مع لجنة توثيق تاريخ الحركة الشيوعية المصرية حتى عام ١٩٦٥، ١٩٩٩.
٦٤. شهيدة الباز(إشراف)، مصطفى مجدى الجمال(مسئول التحرير)، (أفريقية - عربية:

مخـــتارات العلوم الاجتماعية، المجلد الأول، نشر مشترك مع كوديسريا ودار الأمين، أكتوبر ١٩٩٩.

٦٥. أميـــنة رشيد (تحرير)، الحريات الفكرية والأكاديمية، نشر مشترك مع دار الأمين، ٢٠٠٠.

٦٦. فاروق القاضى، فرسان الأمل : تأمل فى الحركة الطلابية المصرية، ٢٠٠٠

٦٧. جردا منصور، مديحة دوس (تحرير)، سلسلة أوراق في علم اللغة، الورقة الأولى- يـــناير ٢٠٠٠ حـــول (مشـــكلات تدريس اللغات فى مصر)، نشر مشترك مع جماعة اللغويين فى القاهرة.

٦٨. محمد سيد أحمد وآخرون، سلسلة كتب شهادات ورؤى: من تاريخ الحركة الشيوعية المصـــرية حـــتى عـــام ١٩٦٥: الجزء الثالث بالتعاون مع لجنة توثيق تاريخ الحركة الشيوعية المصرية حتى عام ١٩٦٥، ٢٠٠٠.

٦٩. شـــهيدة الـــباز(إشـــراف)، مصطفى مجدى الجمال(مسئول التحرير)، (أفريقية - عربية : مخـــتارات العلوم الاجتماعية، المجلد الثانى، نشر مشترك مع كوديسريا ودار الأمين، مارس ٢٠٠٠.

٧٠. أحمد مختار منصور، الجراحة قي الحضارة العربية الإسلامية، ٢٠٠٠.

٧١. جردا منصور، مديحة دوس (تحرير)، سلسلة أوراق في علم اللغة، الورقة الثانية- نوفمـــبر ٢٠٠٠ (دراسات حول اللغة العربية فى مصر)، الورقة الثالثة، نشر مشترك مع جماعة اللغويين فى القاهرة.

٧٢. شـــهيدة الـــباز(إشـــراف)، مصطفى مجدى الجمال(مسئول التحرير)، (أفريقية - عربية : مخـــتارات العلوم الاجتماعية، المجلد الثالث، نشر مشترك مع كوديسريا ودار الأمين، أكتوبر ٢٠٠٠.

٧٣. حلمى شعراوى، أفريقيا فى نهاية قرن، نشر مشترك مع دار الأمين، ٢٠٠٠

٧٤. أديـــب ديمترى وآخرون، سلسلة كتب شهادات ورؤى:من تاريخ الحركة الشيوعية المصـــرية حـــتى عـــام ١٩٦٥: الجزء الرابع بالتعاون مع لجنة توثيق تاريخ الحركة الشيوعية المصرية حتى عام ١٩٦٥، ٢٠٠١.

٧٥. مصـــطفى مجـــدي الجمال (تحرير)، فلسطين والعالم العربى، نشر مشترك مع دار مدبولى، ٢٠٠١.

٧٦. عبد الغفار شكر (تحرير)، تحديات المسروع الصهيونى والمواجهة العربية. نشر مشترك مع دار مدبولى، ٢٠٠١.

٧٧. فرانسوا أوتار وفرانسوا بوليه، في مواجهة دافوس، ترجمة : سعد الطويل، نشر مشترك مع دار ميريت، ٢٠٠١.

٧٨. عبد الغفار شكر (إشراف)، الجمعيات الأهلية الإسلامية في مصر ، نشر مشترك مع دار الأمين، ٢٠٠١.

٧٩. كويسى براه، اللغات الأفريقية وتعليم الجماهير. ترجمة وتحرير حلمى شعراوى، بالتعاون مع مركز الدراسات المتقدمة للمجتمع الأفريقي بكيب تاون، الناشر، دار الأمين، ٢٠٠١.

٨٠. فيتينو بيكيلى، وآخرون، دراسات مختارة/ التحولات الاجتماعية والمرأة الأفريقية، بالتعاون مع منظمة أوسريا بأديس أبابا، تقديم د. عبد الغفار محمد أحمد، الناشر دار الأمين، ٢٠٠١.

٨١. أحمد القصير وآخرون، سلسلة كتب شهادات ورؤى:من تاريخ الحركة الشيوعية المصرية حتى عام ١٩٦٥: الجزء الخامس بالتعاون مع لجنة توثيق تاريخ الحركة الشيوعية المصرية حتى عام ١٩٦٥، ٢٠٠١.

٨٢. رمسيس لبيب (تحرير)، العمال فى الحركة الشيوعية المصرية حتى ١٩٦٥، الورشة الأولى بالتعاون مع لجنة توثيق تاريخ الحركة الشيوعية المصرية حتى عام ١٩٦٥،٢٠٠١.

٨٣. شهيدة الباز(إشراف)، مصطفى مجدى الجمال(مسئول التحرير)، (أفريقة - عربية : مختارات العلوم الاجتماعية، المجلد الرابع، نشر مشترك مع كوديسريا ودار الأمين، أكتوبر ٢٠٠١.

٨٤. سعد الطويل (تحرير)، الأجانب فى الحركة الشيوعية المصرية حتى ١٩٦٥، الورشة الثانية، بالتعاون مع لجنة توثيق تاريخ الحركة الشيوعية المصرية حتى عام ١٩٦٥، ٢٠٠٢.

٨٥. جردا منصور، مديحة دوس (تحرير)، سلسلة أوراق في علم اللغة، الورقة الثالثة- مايو ٢٠٠٢ (مساهمات فى اللغويات العربية)، نشر مشترك مع جماعة اللغويين فى القاهرة.

٨٦. سمير أمين، مستقبل الجنوب فى عالم متغير، نشر مشترك مع دار الأمين، ٢٠٠٢

٨٧. أكيكي بي موجاجو وآخرون، دراسات اجتماعية في شرق وجنوبي أفريقيا، بالتعاون مع منظمة أوسريا بأديس أبابا، الناشر دار الأمين، ٢٠٠٢.

٨٨. سمير أمين وآخرون، العلاقات العربية الأوربية: قراءة عربية نقدية، نشر مشترك مع دار الأمين، ٢٠٠٢.

٨٩. يسرى مصطفى (تحرير)، المجتمع المدنى وسياسات الإفقار فى العالم العربى، نشر مشترك مع دار ميريت، ٢٠٠٢.

٩٠. د. فخرى لبيب (تحرير)، منظمة التجارة العالمية ومصالح شعوب الجنوب، بالتعاون مع منظمة تضامن الشعوب الأفريقية الآسيوية وعدد من المنظمات غير الحكومية، الناشر مركز المحروسة، ٢٠٠٢.

٩١. إسماعيل عبد الحكم وآخرون، سلسلة كتب شهادات ورؤى: من تاريخ الحركة الشيوعية المصرية حتى عام ١٩٦٥: الجزء السادس بالتعاون مع لجنة توثيق تاريخ الحركة الشيوعية المصرية حتى عام ١٩٦٥، ٢٠٠٢.

٩٢. د.عبد الغفار محمد أحمد، فى تاريخ الأنثروبولوجيا والتنمية فى السودان، ترجمة مصطفى مجدى الجمال، نشر مشترك مع دار الأمين، ٢٠٠٢.

٩٣. عبد الغفار شكر (تحرير)، الجمعيات التعاونية كمنظمات شعبية تنموية- الجزء الأول، نشر مشترك مع مركز المحروسة، ٢٠٠٢.

٩٤. حنان رمضان (تحرير)، المرأة فى الحركة الشيوعية المصرية حتى عام ١٩٦٥، الورشة الثالثة، بالتعاون مع لجنة توثيق تاريخ الحركة الشيوعية المصرية حتى عام ١٩٦٥، ٢٠٠٢.

٩٥. عريان نصيف (تحرير)، الفلاحون فى الحركة الشيوعية المصرية حتى عام ١٩٦٥، الورشة الرابعة، بالتعاون مع لجنة توثيق تاريخ الحركة الشيوعية المصرية حتى ١٩٦٥، ٢٠٠٢.

٩٦. شهيدة الباز(إشراف)، مصطفى مجدى الجمال(مسئول التحرير)، (أفريقية - عربية : مختارات العلوم الاجتماعية، المجلد الخامس، نشر مشترك مع كوديسريا ودار الأمين، ٢٠٠٢.

٩٧. سمير أمين وآخرون، الاشتراكية واقتصاد السوق: تجارب (الصين- فيتنام- كوبا)،

نشر مشترك مع مكتبة مدبولى، ٢٠٠٣.

٩٨. عبد الحميد حواس، أوراق في الثقافة الشعبية في مصر، نشر مشترك مع دار الأمين، ٢٠٠٣.

٩٩. عبد الغفار شكر (تحرير)، الجمعيات التعاونية كمنظمات شعبية تنموية- الجزء الثانى، نشر مشترك مع مركز المحروسة، ٢٠٠٣.

١٠٠. مدحت أيوب (تحرير)، الأمن القومى العربي، نشر مشترك مع مكتبة مدبولى، ٢٠٠٣.

١٠١. طايع آصيفا وآخرون (تحرير)، العولمة والديمقراطية والتنمية: تحديات وآفاق، نشر مشترك مع منظمة العلوم الاجتماعية لشرق وجنوبى أفريقيا (أديس أبابا)، ومركز المحروسة، ٢٠٠٣.

١٠٢. فخرى لبيب (تحرير)، الطلبة فى الحركة الشيوعية المصرية حتى ١٩٦٥، الورشة الخامسة، بالتعاون مع لجنة توثيق تاريخ الحركة الشيوعية المصرية حتى عام ١٩٦٥،٢٠٠٣.

١٠٣. جردا منصور، مديحة دوس (تحرير)، سلسلة أوراق فى علم اللغة، الورقة الرابعة- مايو ٢٠٠٣ (قضايا حول اللغة العربية والتعبير العلمى)، نشر مشترك مع جماعة اللغويين فى القاهرة.

١٠٤. هويدا عدلى (تحرير)، ثقافة وسائل الاتصال فى الوطن العربى: الإعلام والهوية، نشر مشترك مع دار الأمين، ٢٠٠٣.

١٠٥. شهيدة الباز(إشراف)، مصطفى مجدى الجمال(مسئول التحرير)، (أفريقية - عربية : مختارات العلوم الاجتماعية، المجلد السادس، نشر مشترك مع كوديسريا ودار الأمين، ٢٠٠٣.

١٠٦. سمير أمين، فرانسوا أوتار (تحرير)، مناهضة العولمة : حركة المنظمات الشعبية فى العالم، نشر مشترك مع المنتدى العالمى للبدائل، ودار الأمين، ٢٠٠٣.

١٠٧. أحمد برقاوى وآخرون، الدولة الوطنية وتحديات العولمة فى الوطن العربى، نشر مشترك مع مركز الدراسات والبحوث الاستراتيجية دمشق ومكتبة مدبولى، ٢٠٠٣.

١٠٨. رمسيس لبيب(تحرير)، الانقسامية وأزمة الحركة الشيوعية المصرية حتى عام ١٩٦٥، الورشة السادسة والسابعة، بالتعاون مع لجنة توثيق تاريخ الحركة الشيوعية

المصرية حتى ١٩٦٥، ٢٠٠٣.

١٠٩. د. محمـد ماهـر الجمـال، أحمد لطفى السيد: دراسة فى الخارطة المعرفية، نشر مشترك مع دار الأمين، ٢٠٠٣.

١١٠. عـبد الغفـار شكر (منسق البحث)، نظام الخدمة العامة فى مصر وآفاق تطويره: دراسة حالة محافظة دمياط، بالتعاون مع شبكة الجمعيات الأهلية للتنمية وقضايا النوع بدمياط، ٢٠٠٣.

١١١. شـهيدة الـباز(إشـراف)، مصطفى مجدى الجمال(مسئول التحرير)، (أفريقية – عربية : مخـتارات العلوم الاجتماعية، المجلد السابع، نشر مشترك مع كوديسريا ودار الأمين، ٢٠٠٤.

١١٢. ريمى هيريرا وآخرون، ترجمة باتسى جمال الدين، الثورة الكوبية... إلى أين....؟ دراسـة فى ملامح التاريخ الكوبى واستشراف القرن الواحد والعشرين، نشر مشترك مع منتدى العالم الثالث ودار العالم الثالث،٢٠٠٤.

١١٣. ألـيون سـال (تحريـر)، تـرجمة سعد الطويل، أفريقيا ٢٠٢٥، أى مستقبل؟ نشر مشترك مع البرنامج الإنمائي للأمم المتحدة، المدينة برس، ٢٠٠٤.

١١٤. دينـيس فينتر وآخرون، دراسات اجتماعية في شرق وجنوبي أفريقيا، العدد الثالث نشـر مشـترك مع منظمة العلوم الاجتماعية لشرق وجنوبى أفريقيا (أوسريا) بأديس أبابا، الناشر المدينة برس، ٢٠٠٤.

١١٥. هايـن ماريـز، تـرجمة صلاح العمروسى وعزة الخميسى، جنوب أفريقيا: حدود التغيـير: الاقتصـاد السياسـى لمرحلة الانتقال نشر مشترك مع منتدى العالم الثالث وآخرون، الناشر دار الأمين، ٢٠٠٤.

١١٦. د.أحمـد زايـد – د.عـروس الزبـير (تحرير)، النخب الاجتماعية: حالة الجزائر ومصر، نشر مشترك مركز البحوث فى الاقتصاد التطبيقى من أجل التنمية بالجزائر، مع الناشر دار مدبولى، ٢٠٠٤.

١١٧. د. حمـدى عبد الرحمن –عزة خليل، المجتمع المدنى ودوره فى التكامل الأفريقى، نشر مشترك مع مركز المجتمع المدنى –جامعة ناتال، الناشر المدينة برس، ٢٠٠٤.

١١٨. فاروق القاضى، آفاق التمرد: قراءة نقدية فى التاريخ الأوروبى والعربى الإسلامى، نشر مشترك مع المؤسسة العربية للدراسات والنشر بالأردن، ٢٠٠٤.

كراسات المركز

١- أحمد هنئ، حول إجراءات الإصلاح الاقتصادى فى الجزائر، ١٩٨٨.

٢- عصام فوزى، ترجمة ثلاثة قراءات سوفيتية فى البيريسترويكا، ١٩٨٨.

٣- أشرف حسين، ببليوجرافيا الطبقة العاملة، ١٩٨٨.

٤- عبد العظيم أنيس، قراءة نقدية فى كتابات ناصرية، ١٩٨٩.

٥- مصطفى نور الدين عطية، المجتمعات التابعة ومشكلات التنمية المستقلة، ١٩٨٩

٦- موشى ليوين وآخرون، تقديم/ فؤاد مرسى، البيريسترويكا فى عيون الآخرين، ١٩٩٠

٧- نادر فرجانى، الأزمة العربية الكبرى

٨- محمد أبو مندور وآخرون، أزمة المياه في الوطن العربى، نشر مشترك مع دار الأمين ١٩٩٩.

٩- إسماعيل زقزوق، المهمشون بين النمو والتنمية، نشر مشترك مع دار الأمين١٩٩٩.

١٠- عبد الغفار شكر، تجديد الحركة التقدمية المصرية، نشر مشترك مع دار الأمين ٢٠٠٠.

١١- حنان رمضان (إعداد)، العراق تحت الحصار، نشر مشترك مع دار الأمين ٢٠٠٠.

١٢- أحمد صالح، الإنترنت والمعلومات، نشر مشترك مع دار الأمين ٢٠٠١.

١٣- عريان نصيف (تحرير) الأرض والفلاح، نشر مشترك مع دار الأمين ٢٠٠١.

١٤- أحمد عبد الله، عمال مصر وقضايا العصر، نشر مشترك مع دار المحروسة ٢٠٠٢.

١٥-عريان نصيف (تحرير)، التشريع التعاونى فى مصر: الواقع.... وآفاق المستقبل، نشر مشترك مع دار الأمين، ٢٠٠٠.

١٦-د.محمد ماهر الجمال، مضامين التربية الشعبية، في مجلة "الأستاذ" لعبد الله النديم، نشر مشترك مع دار الأمين، ٢٠٠٣.

١٧ - مدحت أيوب، قضايا فى الاقتصاد المصرى بعد التكيف الهيكلى، نشر مشترك مع دار الأمين، ٢٠٠٣.

١٨- كلود كاتز وآخرون، ترجمة يوسف درويش، إمبريالية القرن الواحد والعشرين، نشر مشترك مع دار الأمين، ٢٠٠٣.

١٩- سمير أمين، الفيروس الليبرالى: الحرب الدائمة وأمركة العالم، نشر مشترك مع مركز المحروسة، ٢٠٠٤.

٢٠- الحركة العمالية المصرية: الخبرة النضالية وآفاق المستقبل، نشر مشترك مع مركز المحروسة، ٢٠٠٤.

كراسات كوديسريا

١- أوكوادبا نولى، الصراع العرقى فى أفريقيا١٩٩١.

٢- ايبو هو تشغول، الجيش والعسكرية فى أفريقيا، ١٩٩١.

٣- ديساليجن رحماتو، منظمات الفلاحين فى أفريقيا : قيود وإمكانيات، ١٩٩١.

٤- جيمى آديسينا، الحركات العمالية وضع السياسة فى أفريقيا، ١٩٩٢.

٥- أديمولات – سالو، تغير البيئة العالمية: جدول أعمال بحث لافريقيا، ١٩٩٣.

٦- م. مامدانى،آخرون، الحركات الاجتماعية والعلمية الديمقراطية فى أفريقيا.

٧- ثانديكا مكانداويرى، التكيف الهيكلى والأزمة الزراعية فى أفريقيا.

٨- مومار ديوب، ممادوديوف، تداول السلطة السايسية وآلياتها فى أفريقيا، ١٩٩٢.

٩- آرشى مافيجى، الأسر المعيشية وآفاق إحياء الزراعة فى أفريقيا، ١٩٩٣.

١٠- سليمان بشير ديانى،المسألة الثقافية فى أفريقيا، ١٩٩٦.

١١- ميشيل بن عروس، الدولة – والمنشقون عليها، ١٩٩٦.

١٢- عبدو مالك سيمون، عملية التحضر، والتغير فى أفريقيا، ١٩٩٩.

١٣- أمينة ماما، دراسات عن المرأة ودراسات النساء فى أفريقيا، ١٩٩٩.

١٤- تادى آكين آنيا، العولمة السياسية الاجتماعية فى أفريقيا، ١٩٩٩.

١٥- مامادو ضيوف، ليبرالية سياسية أم انتقال ديمقراطى : منظورات أفريقية، ١٩٩٩.

١٦- حكيم بن حمودة نظريات ما بعد التكيف الهيكلى، ٢٠٠٠.

١٧- كلوديو شوفتان، ماذا بعد ممارسات التنمية المشوهة فى أفريقيا؟، ٢٠٠٠.

١٨- أشيلى ميبمبى، عن الحكم الخاص غير المباشر، ٢٠٠٠.

١٩-تشيكيلاك. بيايا، الشباب والعنف والشارع فى كنشاسا: نسمع ونفهم ونصف، ٢٠٠١.

٢٠-سليمان بشير ديانى، إعادة بناء المعنى: نصوص ورهانات لقراءة مستقبل أفريقيا، ٢٠٠١.

سلسلة كراسات اللجنة الاقتصادية لأفريقيا

أ- التنمية بالمشاركة

١- تعزيز التواصل بين مؤسسات صنع السياسة الحكومية وبين الجامعات والمراكز البحثية من أجل دعم الإصلاح الاقتصادى والتنمية فى أفريقيا .

٢- تحسين أداء المشروعات العامة فى أفريقيا: دروس من تجارب قطرية .

٣- تحسين أداء المشروعات العامة فى أفريقيا.
٤- تعبئة وإدارة الموارد المالية فى الجامعات الأفريقية.
٥- تحسين إنتاجية الخدمات العامة فى أفريقيا.
٦- دعم حيوية الجامعة الأفريقية فى التسعينيات ومابعدها.
٧- تهيئة البيئة لتنمية الفعاليات التنظيمية فى أفريقيا.
٨- تعبـئة القطاع غير الرسمى والمنظمات غير الحكومية من أجل الإصلاح الاقتصادى والتنمية فى أفريقيا.
٩- الأخلاقيات والمساءلة فى الخدمات العامة الأفريقية.
١٠- أعمال ندوة حول الديمقراطية والمشاركة الشعبية لقادة نقابات العمال فى أفريقيا.
١١- الإثنية والصراع السياسى فى أفريقيا.
١٢- ميثاق عمل للمنظمات غير الحكومية فى أفريقيا.

ب- سلسلة التنمية بالمشاركة

١- دراسة حالة فى ناميبيا.
٢- دراسة حالة فى أوغندا.
٣- كيف تؤثر المنظمات الأهلية فى السياسات عن طريق البحث والضغط والدعوة.
٤- المبادئ الأساسية لتعزيز الحوار والتعاون والتداخل بين الحكومات والمنظمات الشعبية.
٥- دراسة حالة فى جامبيا.
٦- دراسة حالة فى أثيوبيا.

ج- سلسلة الدليل التدريبى للتنمية بالمشاركة الشعبية

١- الاتصال فى خدمة التنمية بالمشاركة.
٢-المنظمات المحلية غير الحكومية وتحقيق الاكتفاء الذاتى من الغذاء فى المجتمعات المحلية.
٣- مناهج تطوير المنظمات الأهلية للمشروعات.
٤- تخفيف الفقر وصيانة البيئة.
٥- تعريف دور وأهمية اتصال دعم التنمية من أجل المشاركة الفعالة فى عملية التنمية.
٦- إدارة المشروعات الصغيرة
٧- تصميم فعال لخدمات تنظيم الأسرة
٨- دور مؤسسات المجتمع المدنى في منع وإدارة وحل الصراعات فى أفريقيا.

النشرات

١- نشرة البحوث العربية

من العدد التجريبى يناير ١٩٩٠ إلى العدد (١٥-١٦)سبتمبر٢٠٠٣- مارس٢٠٠٤.

٢- **نشـرة المجلس الأفريقى لتنمية البحوث الاقتصادية والاجتماعية (كوديسريا)**: من العدد الأول أبريل ١٩٩١ إلى العدد الخامس والأربعون، ٢٠٠٤.

٣-**نشرة العلوم السياسية الأفريقية**: من العدد الأول إلى العدد الثامن والثلاثون، أغسطس ٢٠٠٣.

٤- **نشرة الذاكرة الوطنية**- مع لجنة التوثيق- العدد الثانى-أكتوبر ١٩٩٦.

٥- **نشرة منتدى العالم الثالث بداكار:**

العدد الأول يوليو ١٩٩٦- العدد الثانى يونيو ١٩٩٧.

٦- **نشرة المنتدى العالمى للبدائل**: العدد الثالث- فبراير ٢٠٠٢.

٧- **نشرة منظمة العلوم الاجتماعية لشرق وجنوبى أفريقيا (أوسريا)**، العدد الأول، مارس ٢٠٠٤.

تحت الطبع

١. الحركات الاجتماعية فى العالم العربى.
٢. الصراع حول المياه: دفاعًا عن الثروة المشتركة للإنسانية.
٣. اليسار فى الثقافة المصرية.
٤. الجمعيات الأهلية الإسلامية- حالة السودان- الجزائر- تونس - المغرب.
٥. المشاركة الشعبية فى التنمية المحلية.
٦. سنوات اليسار فى مصر.
٧. الحقوق الاقتصادية والاجتماعية والثقافية.
٨. المرأة فى القطاع غير الرسمى.

الحريات الفكرية فى شمال أفريقيا.



كراسات سابقة :

أحمد هني، حول إجراءات الإصلاح الاقتصادى في الجزائر ١٩٨٨

عصام فوزي، ترجمة ثلاث قراءات سوفيتية في البيريسترويكا ١٩٨٨

أشرف حسين، ببليوجرافيا الطبقة العاملة ١٩٨٨

عبد العظيم أنيس، قراءة نقدية في كتابات ناصرية ١٩٨٩

مصطفى نور الدين عطية، المجتمعات التابعة ومشكلات التنمية المستقلة ١٩٨٩

موشى ليون وآخرون، تقديم/فؤاد موسى، البيريسترويكا في عيون الآخرين ١٩٩٠

رشدي سعيد وآخرون، أزمة المياه في الوطن العربي ١٩٩٩

إسماعيل زقزوق، المهمشون بين النمو والتنمية ١٩٩٩

عبد الغفار شكر، تجديد الحركة التقدمية المصرية ٢٠٠٠

حنان رمضان (إعداد)، العراق تحت الحصار ٢٠٠٠

د. أحمد محمد صالح، الإنترنت والمعلومات بين الأغنياء والفقراء ٢٠٠١

عريان نصيف (تحرير)، الأرض والفلاح ٢٠٠٢

د. أحمد عبد الله، عمال مصر وقضايا العصر ٢٠٠٢

عريان نصيف (تحرير)، التشريع التعاوني في مصر: الواقع...وآفاق المستقبل ٢٠٠٢

د. محمد ماهر الجمال، مضامين التربية الشعبية فى مجلة "الأستاذ" لعبد الله النديم ٢٠٠٣

مدحت أيوب . قضايا فى الاقتصاد المصرى بعد التكيف الهيكلى ٢٠٠٣

كلود كاتز وآخرون، ترجمة يوسف درويش، امبريالية القرن الواحد والعشرين ٢٠٠٣

د. سمير أمين، الفيروس الليبرالى .. الحرب الدائمة، وأمركة العالم ٢٠٠٤



Arab research Pamphlets